دراسات أدبية

في

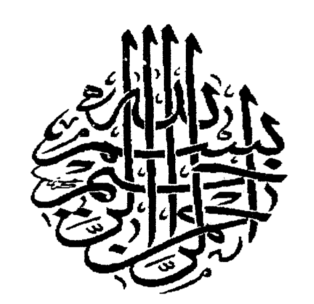
صدر الإسلام - الأموي

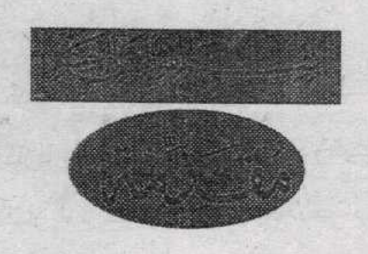
إعداد / دكتور

محمد حامد شريف

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط


بسم الله الرحمن الرحيم



أحمَد الله العظيم وأُثنى عليه الخير كلَّه ، وأصلى وأسلم على من لا نبىَّ بعده ، وعلى آله وصحبه الذين ارتشفوا من رُضابه ، واشتفُّوا من آدابه فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس **وبعد** :

فدراسة موضوعات تاريخ الأدب لا تنفصل عن الأدب ولا عن النقد الأدبى ولاسيما بعد أن اتسع مجال النقد وعظمت مكانته وكثر ممارسوه واتضحت فيه التيارات الجديدة وثارت فيه خصومات بين أنصار الجديد وأنصار القديم .

وتاريخ الأدب إنما ينظر فى عاطفة الشاعر وشعوره ، ليرى صدقه أو كذبه ، وحيناً آخر ينظر فى سلامة أسلوبه وقوته أو عيبه وضعفه أوضوحه وغموضه .. وقد ينظر فى الخيال ليرى ما فيه من جمال أو قبح ومن تجديد أو تقليد ،كما ينظر فى علاقة الأديب ببيئته ، وأثرها فى نتاجه أو فى تفوقه ونبوغه ، ولايستغنى الناقد عن الموازنة بين الشعراء والكتاب فى عصر واحد أو عصور مختلفة كما لايستغنى عن دراسة المؤثرات العامة والخاصة فى حياة الشاعر والكتاب.

– وهكذا لاينفصل تاريخ الأدب عن الأدب ، ولاعن النقد الأدبى .

وحرصنا على تاريخ أدبنا واعتزازنا به واستمدادنا منه هو حرص على تاريخنا وما هيتنا العربية فالأدب صلة ماضينا بحاضرنا وأفكار آبائنا وأجدادنا تسرى فى دمائنا وأعصابنا واعتزازنا بقوميتنا التى تعد اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب من أعظم أساسها ، ولولا محافظتنا على أدبنا

اعتدادنا بتاريخه لمحيت لغتنا وتقوضت قوميتنا وتسلطت عليها لغة أخـرى فاستعبدت عقولنا وأفكارنا وصيرتنا جسماً بلا روح وقلبـاً بـلا عاطفـة . وعبودية العقول والأفكار أشد خطراً من عبودية الأجسام والحطـام لأنـها عبودية لا يرجى لها دواء ، ولا يبرأ لها داء.

وقد بدأت بالحديث عن العصور الأدبية إذا هي بمثابة منارة تضيء المواقف والأحداث السياسية المتعددة ، وقد سلكت في دراسـتي طريقـة لا هي بالموجزة المخلة ولا بالطويلة المملة لتكـون للقـارئ المتوسـط زاداً وللزميل المتخصص معلماً ومنارة على طريق البحث والاستنباط ، وهي مهمـة لا أظن أن أحداً يبلغ فيها الكمال إلا بعون من الله وتوفيقه.

إذا لم يكن عون من الله للفتى ** فأوّل ما تجنى عليه مواهبه

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب"



المنصورة في { ٧ من رمضان ١٤٢٦ هـ
١/١٠/٢٠٠٥ م

الباب الأول

صدر الإسلام

الفصل الأول

الإسلام قيم ومبادئ

نبذة في العصور الأدبية

اصطلح الكاتبون في تاريخ الأدب على أن يستعملوا كلمة "العصـــر الأدبي " للدلالة على المدة الممتدة من الزمن و التي تبدأ ببدايـــة واضحـــة وتنتهي بنهاية مميزة ، وهم يبدأون العصور الأدبيـــة بعصـــر الجاهليـــة أو عصر ما قبل الإسلام ، والمعروف منه هو نحو قرن ونصف تقريباً ثم يأتي عصر صدر الإسلام وينتهي بقيام دولة بنى أمية وبعض الباحثين يجعـــل عصر الإسلام يمتد حتى نهاية دولة بنى أمية سنة ١٣٢هـ ليشمل صـــدر الإسلام وبنى أمية ، بيد أنني لا أميل إلى هذا الرأي وأرى فصل العـــهدين حيث أقام معاوية دولته على شيء خالف به روح الإسلام وتعاليمـــه حيـــن جعل الحكم بطريق الوراثة لا الشورى وقد تولى معاوية الحكـــم بطريـــق خداع الإمام "**علي**" صهر نبي الإسلام وابن عمه ، متجـــاهلاً بذلـــك مبـــدأ الشورى وهو مبدأ نصت عليه الشريعة الإسلامية وأمرت به المســـلمين ؛ لهذا اتَّسم العصر الأموي بالصراعات الحزبية التي قـــامت بيـــن معاويـــة والإمام على سنة ٤٠ـــ ٦٠هـ ولم تنتهِ بتولي معاوية الحكم بـــل ظلـــت الصراعات كامنةً حتى آن لها أن تنفجر بتولية يزيد بن معاوية والذي تولـــى الحكم عن أبيه وراثة ، ثم معاوية الثاني سنة ٦٤هـ الذي مات بعد ولايتـــه بعدة أشهر – فانتقلت إلى مروان بن الحكم ، وظلت في بنيه حتـــى ســـقوط الدولة الأموية.

انتهاء الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية:

اتسم حكم بنى أمية بأمرين بارزين كان لهما خطرهما فى تقويـــض دولتهم والإتيان عليها من القواعد، كما كان لهما الفضل الأكبر فى إرســـاء قواعد الدولة العباسية وتمكين سلطانها في المملكـــة الإســـلامية المتراميـــة الأطراف ، وأول هذين الأمرين : الأول : شدة الأمويين على بنـــى هاشـــم وتنكيلهم بأشرافهم وأتباعهم تنكيلاً حنَّن عليهم القلوب وأحنق مـــن أجلـــهم نفوساً تكره البغي وتنفر من البطش والعدوان .

والآخر: هو إسراف الأمويين في تحقير العجـــم والتـــهوين مـــن أمرهـــم بإقصائهم عن المناصب وقصرهم على الحرف المهنيـــة وصرفـــهم إلـــى الزراعة والصناعة لأن العربي – في زعمهم – لا يجمل به أن ينزل إلـــى مستواها أو يمتهن سيادته في غمارها ، فالعربي في حكومتهم سيد متبـــوع فى حين أن العجمي وإن حسن إسلامه يجب أن يبقى كما أرادوا له مسـودا تابعاً !

أما اضطهاد الأمويين لآل البيت : فقد كان أمراً حتمياً لا مفر منـــه وهذا جعل قلوب المغلوب على أمرهم تتعاطف معـــهم علـــى حـــد قـــول القائل: " إن المصائب تجمعن المصابينا " وإن اجتماع قوة إلى قوة من شأنه أن يختصر طريق الجهاد أمام العدو المشترك !

وقد بدأ تدخل الأتراك في الحكم والإدارة منذ بداية العصر العباسـي الأول ؛ وذلك بسوء ظن الخليفة " **المعتصم**" في العرب ، الأمر الذي دعـــاه لأن يخرج أكثر من كان موجوداً منهم في ديوان الجند والجيش وأن يضـــع مكانهم جنوداً من المماليك الأتراك الذين أرادوا أن يضربوا العـــرب مـــن ناحية والفرس كذلك من ناحية أخرى ، ونتيجة لهذا اعتزّ الجنود الأتـــراك بمكانتهم أولا، ثم اغتروا ثانياً ، **فبسطوا أيديهم في شئون الدولة يتحكمـــون فيها ، ويصرّفون أمورها حسب أهوائهم ، لا كما تقتضـــي بـــه المصلحـــة العامة ! وقد بلغ بهم الاستبداد والتحكم حتى شمل الخليفـــة نفســـه ، فـــهم يعزلون هذا ويقيلون ذلك ثم يولون من يريدون وبالطبع هم يختارون مـــن يكون طوع أمرهم ، ورأى الفرس أن الفرصة أصبحت مواتية ليســـتردوا عزّهم الزائل ومجدهم المضيع فأعلنوا استقلالهم عن الدولة العباسية .**

وهكذا نزلت مكانة الخلافة وهيبتها إلى الحضيض وصار الخليفـــة ألعوبةً في أيديهم فلم يعد للخليفة سوى اللقب ، وقد صور الخليفة المعتمـــد ذلك بنفسه فقال :

أليس من العجائب أن مثلي & يرى ما قلَّ ممتنعـــاً عليـــه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميـــعاً & وما من ذاك شيء في يديه !

فلم لا يهتبل الفرس هذا الوضع المختل في الدولة لكي يمهدوا لاستعادة مجد فارس وسلطان الأكاسرة بأن ينشئوا دولاً هنا وهناك كالدولة البويهية في فارس والسامانية في خرسان .. ولم يكتفوا بهذا بل ترقبوا يوماً يهجمون فيه بجموعهم على بغداد مركز الخلافة العباسية واستطاعوا دون أية مقاومة أن ينتزعوا السلطة من أيدي الأتراك ، وأن يتحكموا كما يشاءون في الخلفاء .

وهناك أمر هام تجدر الإشارة إليه وهو أن الفرق الإسلامية التي بلغت أقصى نشاطها زمن العباسيين وقسّمت المسلمين إلى شيع وأحزاب بلغت حداً يؤذن بالانحلال لأن كل فرقة من الفرق الرئيسية انقسمت إلى فروع عديدة فالشيعة والخوارج والمعتزلة انقسموا أكثر من سبعين فرقة.. ترتب على وجود هذه الفرق آراء للعلويين والخوارج والشيعة في خلافة العباسيين ليست شرعية ، وأن هذه الآراء انتشرت في كثير من الأقاليم فوجدت لها متنفساً بين الشعوب التي تؤمن بقوميتها وعصبيتها ؛ لذا فعملوا على الانفصال والاستقلال خاصة في الأطراف البعيدة مثل المغرب ومصر عمان وخرسان(١)

المراد بالعصر الأدبي الإسلامي :

قلنا: إن كلمة **عصر** : تطلق على المدة الممتدة من الزمن ، والتي تبدأ ببداية واضحة وتنتهي بنهاية مميزة وغالباً ما تقترن بثورة تهدف إلى تغيير النظام السياسي وما يتبعه من تغيير في بقية النظم القائمة ...

أما كلمة إسلام : فهي تدل باشتقاقها اللغوي على معنى الخضوع والانقياد ؛ وقد ترددت في القرآن الكريم بهذا المعنى في مثل : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾ ، ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ ثم أطلقت علماً على ديننا الحنيف في قوله تعالى:﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾

---

(١) راجع ملامح من تاريخ الدولتين الأموية والعباسية د. عبد المقصود نصار، د. عبد العزيز غنيم ص / ١٥٩ ط / ١٩٧٥ م.

إذن فالعصر الإسلامي إنما يعني : المدة التي ظهرت فيها البعثة المحمدية أو التي نسبت إلى هذا الدين الجديد الذي جاء ثورة على ما في المجتمع الجاهلي من فساد ، فأحدث فيه ذلك الانقلاب في قيمه ومبادئه ونظامه .

الحياة العربية بين الجاهلية والإسلام :

جاء الإسلام والعرب أمة بدوية وقبائل رحّالة ليس فيها من وسائل التحضر والعمران أو أسباب الرخاء ما يحملها علي تعمق في علم أو تبصر في دين أو تفنن في تجارة أو تأنق في زراعة أو تدبر في سياسة .. فكانت الخلافات والخصومات والحروب بينهم لا تهدأ وكانوا في سفه من العقد وجهل ويا له من جهل ، فالطباع جافة والأخلاق شرسة والتفكير والخيال راكد وقد ظهر ذلك في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية ، ومعاملاتهم أو أسلوب حياتهم ، كما ظهر ذلك في لغتهم وأغراضها المحدودة التي لا تعدو أغراض المعيشة البدوية من وصف أو إثارة المنازعات والخصومات بالهجاء والمدح وفي خلال هذا الظلام أراد الله أن يشرق النور علي هذه الصحراء الجرداء فكانت بعثة نبيه محمد ﷺ ودعوته بمكة عام ٦١٠ م ، وقد امتد عصر الرسول فشمل عهد أبي بكر وعثمان وعلي والحسن بن علي ، إلى أن تنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة إلي معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ

القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام :

جاء الإسلام لينقذ البشرية مما كانت عليه من فساد في الجاهلية ، وليغير وجه الحياة على ظهر المعمورة ، وذلك بقيمه الروحية والعقلية ومبادئه الإنسانية ونظمه الاجتماعية:

قيم روحية :

لعل من أهمها أن الإسلام دين عقيدة وعمل أو إيمان وشريعة ، فلا تقبل واحدة بغير الأخرى؛ ولذلك لا نجد آية في القرآن تتحدث عن الإيمان إلا وتجمع إليه العمل ، ثم كان الإيمان بالغيب قيمة روحية تميَّزت بها الأمة

المحمدية عن بقية الأمم السابقة التي لا تؤمن إلا بالمادة أو بالمحسوس من المعجزات ، فكانت أول صفة للمؤمنين في سورة البقرة ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ﴾ والإيمان بالغيب يتمثل في الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وباليوم الآخر وما فيه من حساب وثواب وعقاب ، وبالقدر خيره وشره حلوه ومره ، والإيمان بالغيب إنما يربّي في النفس البشرية الضمير الحي ، كما يبعث على دوام المراقبة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ والإنسان دائماً متعلق بإرادة الله ومشيئته ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾، والعبادات في الإسلام من صلاة وصيم وحج وزكاة إنما هي منطلقات لسلوك المسلم السوي فالصلاة مثلاً تعلمه النظام والنظافة والمحافظة على الوقت .. والصيام يعلمه المراقبة والصبر ومواساة الضعفاء ، والزكاة تكافل بين أفراد المجتمع والحج رحلة للآخرة تتساوى فيها العباد لا فرق بين غني وفقير أو طويل وقصير أو حاكم ومحكوم .. وهكذا يقال في بقية العبادات إنها منطلقات لجميع سلوكيات المسلمين . والإسلام دين فضيلة يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ، فالمسلم تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر كما ينهاه الصيام عن الغيبة والنميمة إلى آخر تلك السلوكيات ، والمراقبة التي يفرضها الصيام تنهانا عن جميع الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

<u>قيَم عقلية :</u>

وتتمثل في قضاء الإسلام علي الوثنية الجاهلية بكل ما فيها من كهانة وسحر وشعوذة وخرافة من شأنها أن تحقّر عقل الإنسان أو توقفه عن التفكير في ما حوله ، لهذا حاربها فارتقي بالعقل الإنساني عن الحماقات والترهات وقد دعا الإسلام لإعمال العقل والتفكير في ملكوت السماوات والأرض وجعلها من العبادات التي يثاب عليها المؤمن وقد فضل الله الإنسان علي سائر مخلوقاته بالعقل وبنعمة التكليف فصار أفضل من الملائكة التي أمرت بالسجود لأدم فسجدوا والقرآن ينحي باللائمة علي من لا يستخدمون عقولهم

فيشبههم بالأنعام التي لا تعقل وكثيراً ما تختتم الآيات بقوله تعالي :أفلا يعقلون ، أفلا تتذكرون، لقوم يتفكرون ، لقوم يعقلون والإسلام الصحيح إنما يكون علي الفهم والإقلاع لا علي التقليد والمحاكاة للآباء والأسلاف وقد أطال القرآن، في فضل العلم والعلماء فهم أفضل العالمين الذين يخشون ربهم ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾

وقد حمّل الإسلام العلماء أمانة الدين وجعل لهم حق الاجتهاد واستنباط الأحكام ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ كما دعا الرسول الكريم إلي الشورى و شاورهم في الأمر ليصدر الرأي عن عقول كثيرة لا عقل واحد وهكذا رفع الإسلام من شأن العقل وفتح الأبواب أمام الاجتهاد .

قيَم إجتماعية :

جاء الإسلام والعرب أمة بدوية وقبائل رحالة ليس فيها من وسائل التحضر والعمران أو أسباب الرخاء ما يحملها علي تعمق في علم أو تبصر في دين أو تفنن في تجارة أو تأنق في زراعة أو تدبر في سياسة .. فكانت الخلافات والخصومات والحروب بينهم لا تهدأ وكانوا في سفه من العقد وجهل ويا له من جهل ، فالطباع جافة والأخلاق شرسة والتفكير والخيال راكد وقد ظهر ذلك في عاداته وتقاليدهم الاجتماعية ومعاملاتهم وأسلوب حياتهم كلها . وقد ظهر ذلك في لغتهم وأغراضها المحدودة التي لا تعدو أغراض المعيشة البدوية من وصف أو إثارة المنازعات والخصومات بالهجاء والمدح .

جاء الإسلام ليقضي على أوكار الفاحشة وليمحو آثار العصبية القبلية .. جاء ليقيم مجتمعاً أساسه التقوى وقوامه الحب والفضيلة والنقاء والطهارة ، وعنوانه الوحدة والتآخي .. جاء الرسول ليتمم مكارم الأخلاق ، ولتكون أمته خير أمة أخرجت للناس .

وكان العرب لا يعرفون فكرة الأمة وإنما يعرفـون فكـرة القبيلـة وكانت كل قبيلة تتعصب لأفرادها ، فإذا جني أحدهم جنايـة شـركته فـي مسئوليتها وإذا قتل لها أحد هبت للأخذ بثأره فلما جاء الإسلام أضعف مـن شأن القبيلة ليحل محلها فكرة الأمة وليكون الثأر بيد الحاكم الشرعي لا بيد رئيس القبيلة ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ فـهي أمـة يعلوا فيها السلطان الإلهي علي السلطان القبلي أي انه نقل حق الأخذ بالثـأر من القبيلة للدولة .

وراح الإسلام يرسي القواعد الاجتماعية للدولة الجديدة فدعا إلـي المساواة في الحقوق والواجبات ليقضي علي الفوارق الاجتماعية ، فقـال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ويقول ﷺ في حجة الوداع : " ليس لعربي علي عجمي فضل إلا بالتقوى " كما كان من تلك القواعد أن وضـع نظـام التكافل الاجتماعي بفرض الزكاة والحس علي الصدقات وبذلك أصبح للفقير حق معلوم في مال الغني يؤديه عن رضي ولا ينتظر من الفقير مقـابلاً أو شكراً فالجزاء الأوفى من الله عز وجعل والزكاة أساس للتكـافل والعدالـة الاجتماعية أما الصدقات فهي لتأكيد معاني الأخوة بين أفراد المجتمع المسلم ولهذا أندفع كثيراً من الصحابة ينفقون أموالهم جميعها في سبيل الله يبتغـون عند الله الجزاء الأوفى والأمثلة كثيرة . كما وضع الإسلام نظام للمعـاملات المادية والتجارية فأمر التجار بالصدق كما أمر بالوفاء في الكيل والمـيزان ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ ﴿ ولا تبخسوا النـاس أشياءهم ﴾ كما قضي علي الربا ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومـون إلا كمـا يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ وقد نظم حقوق المرآة ورعاها خير رعاية فقسم لها حقوقاً ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بـالمعروف﴾ ﴿ للرجـال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ كما حرم وأد البنات وقـد كان يقوم به غلاظ القلوب في الجاهلية كما حرم بالبغاء وشدد فـي النكـير عليهم حتى القتل ومن الطريف أن القرآن لم يحرم شيئاً فـي الجاهليـة إلا

ووضع بديلاً له في الإسلام فمثلاً حرم الزنا وجعل بديلا له الزواج وحـــرم الربا وجعل بديلا له التجارة وحرم الشعوذة والتنجيـــم وجعـــل بديـــلا لـــه الاستخارة وحرم مبارزة السيوف في الأعياد وجعل بديلاً لها السلام ...

قيم إنسانية :

جاء الإسلام فرفع من شأن المسلم اجتماعياً وعقلياً وروحياً وهو ارتفـاع من شأن إنسانيته ،إذ حرره من الشرك وعبادة الأوثان ليعمل فكره وليفـــك القيود عن روحه ، كما هيأه لحياة اجتماعية عادلة تقوم على الخير والـــبر والتعاون ، تعاون الرجل مع المرأة في الأسرة الصالحة ، وتعاون الرجـــل مع أخيه في مجتمعه ، وقد أشار القرآن إلى تكريم الله للإنســـان وتفضيلـــه على سائر المخلوقات وأن الله خلقه في أحسن تقويم ﴿ولقد كرمنا بنـــي آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممـــن خلقنا تفضيلا ﴾ وقد جعل الله الإنسان خليفته في الأرض﴿ وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنـــي جـــاعل فـــي الأرض خليفة .. ﴾

وقد وسّع الإسلام حقوق الإنسان ، كما كفل له حريـــة العقيـــدة والأديـــان ﴿لا إكراه في الدين﴾ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعـاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ وبهذا أصبح المسلم الحـــق هـــو الإنسان السوي الكريم الأبي الذي يعمل بتلك القيم الإسلامية .

وقد يقول قائل : كان لديهم في الجاهلية الشجاعة والمروءة ، وكانت تجـوي في دمائهم نجدة المظلوم وإغاثة الملهوف ، وكان يسري في دمائهم السـخاء والجود وقد تأصل في نفوسهم الدفاع عن الديار ، وعرفوا حقوق الجـوار ، وحماية الأغراض والذمار وكلها صفات أقرها الإسلام ، وأشاد بها رســول الله ﷺ والدليل على ذلك ما فعله ﷺ يوم أُسرت ابنة حاتم الطائي ، فعفـا عنها ﷺ لأن أباها عرف بمكارم الأخلاق ، فكان عفوه ﷺ عنها سبباً فـــي إسلام قومها .

أقول : لكن الإسلام حين جاء وجد إلى جانب هذه الصفات الكريمة خصالاً رديئة وعادات قبيحة ، ويكفي أن ننظر إلى نصوص القرآن الكريم لنرى كثيراً من الأمراض الاجتماعية التي عالجها القرآن بالتوجيه والإرشاد .. لقد دعاهم الله إلى الوحدة التي مزّقتها العصبية القبلية المقيتة والتناحر فيما بينهم ، فقال سبحانه :﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ ودعاهم الله للسلام فيما بينهم بعد أن كادت الحروب تطحنهم وتقضي عليهم ، وكان للإسلام موقفاً تربوياً في تحريم الخمر التي سرت في دمائهم وتغلغلت في حياتهم اليومية ، فنهاهم الإسلام برفق وتدرج في النهي حتى بلغ درجة التحريم ،

* * * * * *

الفصل الثاني

القرآن والحديث

معجزة القرآن الكريم :

القرآن الكريم مفخرة العرب والمسلمين ، ومعجزة النبي الأمين ، إذ لم يُتح لأمة من الأمم كتاب مثله من حيث البلاغة وروعة التأثير ومن حيث الحكمة في التشريع وصدق الإخبار والتبليغ .. فكان بحق نهج المسلمين الذي يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة .

وكان الرسول ﷺ لا يكاد يمضي في تلاوته حتى يروع سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم سواء أكانوا من أنصاره أم من أعدائه ، فقد روى الرواة أن الوليد بن المغيرة الذي كان من ألدّ خصومه سمعه يتلو بعض آي القرآن الكريم فراح إلى نفر من قريش وهو يقول لهم : " والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق وأنه يعلو وما يُعلى "[1] وواضح أنه أحسَّ بدقة آي القرآن التي تغاير كلام فصحاء الإنس كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم . إنه ليس شعراً موزوناً مما عُرف على ألسنة الشعراء ولا سجعاً مقفّى مما كان يدور على ألسنة الكهان والخطباء ، وإنما هو نمطٌ وحده ، معجز ببيانه باهر بصدقه ونظامه ، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس وتجد فيها وفيما يتصل بها من ألفاظ روحاً وعذوبة ، وصدق الله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقد عجزت العرب عن معارضته فمضوا يجرّدون سيوفهم ويغمدون ألسنتهم ولم تلبس المعجزة الباهرة أن استعلت ولم تلبث أضواؤها أن انتشرت في الجزيرة ، وسرعان

---

(١) راجع العصر العباسي شوقي ضيف ص ٣٠ وتفسير الزمخشري في سورة المدثر. ومغدق كثير المياه.

ما بزغت على دروب العالم ومسالكه ويحصي الباقلاني في كتابه إعجاز القرآن الكريم وجوه الإعجاز فيما يلي:

١- الإخبار عن المغيرات   ٢- نظم القرآن وبلاغته

٣- ما في القرآن من أخبار الأمم القديمة مع أميّة الرسول ﷺ

ويمكن أيضاً إظهار بعض مظاهر الإعجاز الأخرى في :(١)

أغراض القرآن ومقاصده - ألفاظه وأساليبه ومعانيه

أما من جهة أغراضه ومقاصده : فنجد في كل غرض أو موضوع غاية في الإبانة والجلاء فمن تشريع خالد وتهذيب بارع وتعليم جامع وأدب بالغ ، وإرشاد شامل ، وقصص واعظ ، ومثل سائر وحكمة بالغة ووعد ووعيد وإخبار بمغيب .. وقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يُستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب ؛ ولهذا ضربوا المثل بامرئ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب والنابغة إذا رهب .!!

وأما من جهة ألفاظه وأساليبه : فلا نجد منه إلا عذوبة في اللفظ ودماثة في النظم ، وتجاذبا في التراكيب فليس فيها وحشي متنافر ، ولا سوقي مبتذل ولا تعبير متنافر ولا فاصلة متعمّلة .. حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء نوراً تكسوه روعة وجلالا ، فمن إجمال في خطاب الخاصة إلى تفصيل في تفهيم العامة وتك[illegible]ة للعربي ، وتصريح للأعجمي وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام " ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام " !!

---

(١) راجع في الدراسات الأدبية د/ محمد عبد المنعم خفاجي ود/علي علي صبح ط/١ ص ١٩ وما بعده ، وجواهر الأدب أحمد الهاشمي ط/ دار الفكرص٣٦٨

ومن جهة معانيه كأنك تجدها من غير معين العرب الـــذي منـــه يســتقون لاطراد صدقها وقرب تناولها واطمئنان النفوس إليها وابتكارها البديع علـــى غير المثال المعهود وأحكام مسلمة تشبيهات رائعة وهو في جملتـــه نزهـــة النفوس وشفاء الصدور وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ولا ناســـخ لأحكامه ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون ﴾

أثر القرآن فى اللغة العربية :[1]

جمع القرآن العرب على لهجة قريش وهى التي كانت تسود القبائل الشمالية فى الجاهلية غير أن هذه السيادة لم تكن تامة ، فكان الشعراء يســتخدمونها غالبا أما قبائلهم فكانت تلوك لهجات مختلفة ، حســب قربها مـــن مكـــة أو بعدها ، فعمل القرآن على تقريب ما بين هذه اللهجات واســـتكمال الســيادة بلهجة قريش ، ولما فتحت الفتوح أخذت لهجة القرآن تسود فـــى مشـــارق العالم الإسلامي ومغاربه ، إذ كانت تلاوته فرضاً مكتوباً على كـــل مســـلم وحث الإسلام على حفظه وترتيله ، فقال سبحانه ﴿ ورتل القرآن ترتيـــلا ﴾ وقال : ﴿ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكـــى ونحشـــره يـــوم القيامة أعمى .. ﴾ وبذلك تحوّل المسلمون إلى حفظة القرآن يتلونه صبـــاح مساء حتى من سكن منهم الصحارى ورؤوس الجبال مما جعلهم ينطبعـــون بطوابعه اللغوية

ثانيا : حول اللغة العربية إلى لغة ذات دين سماوي باهر وبذلك أحل فيـــها معاني لم تكن تعرفها من قبل وبمرّ الزمن أخذت العرب علوماً كثيرة مـــن هذا الدين الجديد ولا نبالغ إذا قلنا إن كل ما كسبه العرب من معارف إنمـــا كان بفضل ما غرس فيهم القرآن الكريم من حب العلم .

ثالثا: أنه هذب اللغة من الحوشية ومن اللفظ الغريـــب فأقامـــها فـــي هـــذا الأسلوب المعجز من البيان والبلاغة ويكفى أن تعود إلى معلقة لبيد أو إلـــى

---

(١) راجع فى العصر الإسلامي ص ٣٠ – ٣٣

شعر قبيلة هذيل وديوانها المطبوع لنرى كيف أن القرآن اختط أسلوبا جـزلاً مع وضوح القصد والوصول إلى الغرض من أقرب طريق .

أثر القرآن في الأدب العربي شعره ونثره :[1]

أولا : في الألفاظ والأساليب وتتجلى فيما يأتي :

١- جدد القرآن كثيراً من الألفاظ فنقلها إلى معاني إسلامية مثل الإيمـــان والكفر والنفاق والصلاة والصيام والزكاة والركوع والســـجود والوضـــوء والغسل والحج .. كما وحّد القرآن لهجات العرب في أفصح لهجة وأعذبـــها ألا وهى لهجة ولغة قريش .

٢- هذّب القرآن الأساليب والألفاظ وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته علـــى ألسنتهم في الصلاة والعبادة واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه ؛ ونتيجـــة لذلك هجرت ألفاظ حوشية معيبة واستبدل بها ألفاظ القرآن العذبة وعدل عن الأساليب القديمة المعقدة إلى غيرها من الأساليب .

٣- وقد كثرت محاكاة الشعراء والكتاب والخطباء لعبـــارات القـــرآن فـــي ألفاظه وأساليبه واقتباسهم من آياته فيما يقولون واستشهادهم بها في خطبـــهم وجدلهم ، والمتتبع لشعر المخضرمين كحسان وكعب بن مالك والحارث بـن عبد المطلب ولشعر الإسلاميين يرى كثيراً من ألفـــاظ القـــرآن وأســـاليبه وكناياته وتشبيهاته .

٤- قد خلّدت صور البيان الرائع والأســـاليب البديعيـــة التـــي اســـتخرجها الأدباء من القرآن وأسموها المحسنات البديعية .

ثانيا في المعاني والمعاني : وتتجلى فيما يأتي :

١- شيوع الدقة والترتيب العقلي والحصافة والسمو في معاني الأدب شـعره ونثره بتأثر الأدباء والشعراء بمعاني القرآن ومحاكاتهم لها

٢- هجر المعاني البدوية واستعمال الأدب للمعاني الإسلامية الجديدة

---

(١) راجع في الدراسات الأدبية ص ٢١ - ٢٣

٣- ترك المبالغة والفحش وجنحوا إلى الصدق في معاني الأدباء الإسلاميين، حيث هجروا الأغراض الجاهلية من المبالغة في المدح والفخر والهجاء والمجون في الغزل والدعوة إلى العصبيات والانتقام والأخذ بالثأر.

٤- صار الأدباء الإسلاميون يتحدثون في الأغراض الشريفة السامية كالدعوة إلى الخير والبر والمعروف ، وإلى ما في الإسلام من آداب .

٥-وقد أتى القرآن بكثير من القصص المسوقة للعبرة والذكرى ، كقصص الأنبياء وبعض الملوك ، وكان من أهم الأساليب التي حملت المسلمين على درس تاريخ العرب البائدة والأمم القديمة السامية وغير السامية مما جعل التاريخ العربي ذا فنون وشعب كثيرة العدد والمباحث ، وجعله من أجمل كتب الأدب العربي .

٦- وبسبب القرآن عكف العلماء والمفكرون على وضع أصول العلوم والثقافة الإسلامية ، وكثرت الكتابة في هذه العلوم والثقافات ولشدة حرص المسلمين على تفهم القرآن حملهم ذلك على تتبع ألفاظ اللغة العربية الفصيحة من العرب الموثوق بخلوص عربيتهم ، فكان من ذلك أن تجرد ألوف من الرواة يجمعون اللغة وشعرها وحكمها وأمثالها ووصاياها وخطبها وأسجاع كهانها . فجمعوا من ذلك مئات الكتب والرسائل . وتألفت بذلك مادة الأدب القديم التى صارت فيما بعد أساساً للآداب العربية في موضوعاته ، و الأغراض والمعاني والأخيلة .

أثر الحديث في الأدب العربي : ويمكن تلخيصه فيما يلي :

أولا : في الألفاظ والأساليب :

١- زاد الحديث النبوي ألفاظا جديدة ، كتسميته " صفر الأول " محرما وكلفظ الزمارة للزانية ، التي وردت في حديث أبى هريرة " إن النبي ﷺ نهى عن كسب الزمارة " وككلمة الصير بمعنى الشق في قوله ﷺ

" من أطلع صير باب فقد دمر " . وللحديث الشريف أثر في توسع معاني بعض الألفاظ واشتقاق أخرى مما لا داعي للإفاضة فيه .

٢- ساعد الحديث النبوي على تهذيب الألسنة ، وتثقيف الطباع والقضاء على الحوشية والغرابة والمعاظلة والتعقيد في البيان ، وأحل محل ذلك السلاسة والسهولة والرونق والوضوح وسلامة الأسلوب والبيان .

٣- قضى على سجع الكهان فرفع منزلة النثر ، وهذَّب أغراضه وفنونه .

٤- زاد كثيراً من الأساليب البليغة في الأدب العربي بالاقتباس من روح الإسلام وألفاظ القرآن ، ومعرفة اللهجات ..

ثانياً : أثره في المعاني :

وقد أثَّر الحديث في معاني الأدب والأدباء والشعراء وأخيلتهم تأثيراً كبيراً فنضجَتْ به معانيهم ، ودقت أفكارهم وحصفت آراؤهم وأصبحت المعاني كذلك يسودها الإحكام والترتيب ، ويغلب عليها السمو والطهر والنزوع إلى المثل العليا و المبادئ الشريفة .

ثالثاً : أثره في أغراض الأدب :

وقد أثرت البلاغة النبوية في أغراض الأدب العربي تأثيرا كبيراً ، فهجر بسببها الهجاء الكاذب ، والفخر المبالغ فيه ، والهجاء الماجن ، والدعوة الجاهلية إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإثارة العصبية .

وأصبحت أغراض الأدب تحتذي البلاغة اللغوية في أغراضها فلا يقول الأديب ولا ينظم الشاعر إلا في الدعوة إلى الخير والحق والسلام ، وفي تأييد العقيدة الإسلامية ، وفى كل شريف من الأغراض ، وكريم من الموضوعات ، كما صار الحديث النبوي كذلك محورا لعلوم دينية وعربية كثيرة وضحت لدراسة الحديث .

وقد ساعد الحديث النبوي كذلك على توحيد اللهجات العربية وعلى ذيوعها وخلودها فهو متمم للقرآن الكريم فى هذا الميدان .

موقف الإسلام من الأدب والشعر:(١)

لا شك أنك حين تسمعنا ندعو مع الداعين إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب ونقده ستقول: إذا كنتم ستحدثوننا عن موقف الإسلام من هذا ، فليس من حقكم أن تفعلوا كما فعل غيركم ، فتعتمدوا في هذا الأمر الجليل على ما جاء في كتب الأدب من أخبار وأقوال ، ولا على ما ورد في أسفار التاريخ من قصص ومواقف ، بل ليس من حقكم أن تعتمدوا على كتب السير و المغازي والتراجم ، فليس كل ما جاء في الطبري ، و ابن الأثير ، والإصابة ، وأسد الغابة ، والطبقات الكبرى ، ونحوها مقطوع بصحته .

فهذه الكتب على جلالة قدرها لا ترقى إلى مرتبة تجعلها مصدراً من مصادر الدين ولا منهلاً من مناهل الشريعة تؤخذ منه النصوص ، وتبنى عليه الأحكام ، فما بالك بالأغاني والعقد ونحوهما ؟ ؛ لذا فأنتم مطالبون بأن تحددوا لنا موقف الإسلام من الأدب من خلال الكتاب والسنة .

أولا : ما جاء في مدح الشعر :

١- هذا مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم قد أقيم في جانب من جوانبه منبر مرموق المكان مشهود الموقع ، وقد تحلق حول المنبر الصحابة الكرام الذين ما حظي تاريخ الإنسانية بأتقى منهم قلباً ، ولا أصفى منهم فكراً ، ولا أنأى عن لهو ، ولا أدنى من جد ، وكان على رأسهم رسول الله ﷺ وقد شخصت أبصارهم جميعاً إلى الواقف فوق المنبر ، وشدت أسماعهم إلى ما تلقيه من رائع القول وساحر البيان ، وكان الواقف على المنبر شاعرا يشيد الشعر .. هو حسان بن ثابت - رضي الله عنه وأرضاه – فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً

(١) راجع نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد د. عبد الرحمن رأفت الباشا ط/٤ ص/١٣ وما بعده .

يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو ينافح ، ويقـــول رســـول الله ﷺ:" إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله"

أفتحسب بعد هذا أن شريعة على ظهر الأرض ، أو نظاماً من أنظمة الحكـم التي عرفها الناس قد رقت بالأدب إلى مثل هذه المنزلة ، أو أحلّتــه مقامــاً يضارع هذا المقام ؟ ... فمجلس الأدب – كما رأيت – يعقد في بيــت مــن بيوت الله ، وشهود المجلس هم الصحابة الكرام وعلـــى رأســـهم الرســـول الأعظم ﷺ.. والنبي الكريم ﷺ يبشر بما سيحفُ الشاعر مـــن التـــأييد فيقول : " إن الله يؤيد بروح القدس"

ولا يخفى أن روح القدس إنما هو أحد أسماء جبريل عليه السلام ، وإنمـــا اختير من أسمائه هذا الاسم إشارة إلى طهارته ونزاهته عن العيوب ، وهمـا وصفان ينشدهما الشاعر المسلم ، ويطمح إلى الاتصاف بهما .

أما التأييد الذي سيحفُ بحسان فإنما يكون بإلهامه طيب القول وإرشاده لمـــا هو الصواب والحق.

وواضح أن سمة الأدب الذي حظي بذلك المقام ، أنه قيل دفاعا عـــن نبـــي الإسلام ، وكبتاً لأعداء الله ورسوله . والأدب حين يغدو ســـلاحا فـــي يـــد الدعاة ، ويتحول إلى لسان صدق ، يهدى إلى الله عزَّ وجل ويحض علــــى الخير والبر والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغـــي ، و يغـــرى بالفضائل ويزيّنها ، وينفر من الرذائل ويقبحها ، إنما يدخـــل فـــي رحـــاب الإسلام من أوسع الأبواب ، ويستحق عليـــــه مـــن الله ورســـوله الرضـــا والثواب، لأن يلهم طيب الأقوال والأفعال .

٢- ثم إن الإسلام أحدث تغييراً فى وظيفة الأدب ، وتبديلا كبيرا في نظـــرة الناس إليه ، فهو لم يبقه – كما كان – متعة يستمتع بها الناس في أنديتـــــهم وأسمارهم ، ولا متنفساً ينفّسون به عن أحزانهم وأشواقهم ، وإنما ارتقى بـــه حتى جعله ضربا من ضروب الجهاد ، وألحقه بفريضة من أجل الفرائـــض

. فعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسـول الله ﷺ قـال :"جـاهدوا المشركين بأنفسكم ، وأموالكم ، وألسنتكم "(١)

وعن كعب بن مالك أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قـد أنزل في الشعر ما أنزل ، فقال النبي ﷺ: " إن المؤمـن يجـاهد بسـيفه ولسانه والذي نفسي بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النّبل"(٢)

فالجهاد – كما أوضح نبي الإسلام ﷺ ضروب ، والأدب – ممثـلاً فـي الشعر –واحد منها ، فهناك جهاد بالنفس: حين يجود بها المرء منعتقا مـن جُبنه ، شارياً بالنفس الفانية نفساً باقية بما عند الله مـن حسـن الثـواب .. وهناك جهاد بالمال: حين يبذله المرء في سبيل الله متحديا نوازع الشح فـي نفسه ، مقرضا هذا المال لله قرضا حسنا يضاعفه له .

وهناك جهاد بالكلمة: يقف إلى جانب الجهاد بالنفس والمال ،ولكن الجـهاد بالكلمة أندر ، والحاجة إليه – لندرته – أشد ؛ وذلك لأن النـاس جميعـاً يملكون نفوساً يمكن أن يجودوا بها إذا صحّت عزائمهم ، وأن لـدى كثـير منهم مالاً يستطيعون أن يضحوا به إذا سخت نفوسهم ، ولكن سـلاح الأدب نادر لا تملكه كل الناس ؛ لأن قوامه الموهبة، والموهوبون قليل !

ثم إن النصوص تشير إلى حقيقة أخرى ، خلاصتها أن من شأن المجتمـع – ممثلاً بولي الأمر – أن ينشط للبحث عن الطاقات الفذّة ، وأن يجنّدها للقيـام بمسئولياتها في الدفاع عن قيم الأمة ومثلها ؛ وفق منهج مـدروس يحقـق الغاية التي يهدف إليها دون أن يترك أثارا جانبية ضارة في أى مجال مـن المجالات ، فعن عائشة ــ رضى الله عنـها ــ أن رسـول الله ﷺ قـال : " اهجوا قريشاً فإنه أشدّ عليهم من رشق النّبل" ، فأرسل إلى ابـن رواحـة

---

(١) فيض القدير : ١٤٣/٣ .

(٢) روى في شرح السنة ، وفى الاستيعاب لابن عبد البر أنه قال : يارسول الله مـاذا ترى في الشعر ؟ فقال : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه

فقال : (اهجهم) ، فهجاهم ، فلم يُرضِ ، فأرسل إلى كعب بن مـــالك ، ثــم أرسل إلى حسان بن ثابت .. فلما دخل حسان قال : قد آن لكم أن ترســـلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبه ، ثم دلع لسانه ، فجعل يحركه ، ثـــم قـــال : والذي بعثك بالحق لأفرينّهم فرْى الأديم ، فقال رسول ﷺ: "لا تعْجل فـــإن أبا بكر أعلم قريشٍ بأنسابها ، وإن لي فيهم نسباً حتى يُخلِّص لك نســـبى" ، فأتاه حسان ثم رجع فقال : يا رسول الله قد خلَّص لى نسبك ، والذي بعثـــك بالحق لأسُلنَّك منهم كما تُسل الشعرةُ من العجين .. قالت عائشة : فســمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول :" لقد هجاهم حسان فشفى وأشفى " [١]

ولا ريب في أن ذلك وسام فخار يضعه الإسلام على صدور الأدباء حيـــن يبحث عنهم ولى أمر المسلمين كما يبحث الطبيب الحاذق عن الدواء النـاجع ، وإنه مسئولية كبرى يلقيها الإسلام على عاتق الأدبـــاء أيضـــا ، وإشـــارة واضحة إلى مهمة الأديب الإسلامي في بناء المجتمع .

فإذا عرفنا أن الإسلام والمسلمين في معركة دائمة ، وأن على كـــل مســـلم نصيبه من الجهاد والبناء ، أدركنا قيمة الأدب في حياة المسلمين ، وأهميتـــه في بناء المجتمع المسلم ، وعلى هذا فليس الأدب نافلة في الحيـــاة ، وإنمـــا هو عنصر أساسي من عناصرها الأصيلة الثابتة .

ثم إن هناك حقيقة أخرى هي أن الإسلام في أول عهده كاد يحصر وظيفـــة الأدب في الذود عن رسول الله ﷺ ، ومناضلة خصومه ، فكانت وظيفتـــه الأولى – كما رأينا من قبل – وظيفة نضالية ، فلما جاء نصر الله والفتـــح ، وأرسيت قواعد الدولة الإسلامية على أسس ثابتة ، جند المســـلمون الأدب للتوجيه والتوعية والتربية ؛ ذلك لأنهم أدركوا ما للكلمة من قدرة رائعة فـــى المحافظة على جذوة الإيمان مشتعلة في النفوس ، وما لها من أثر فذ فـــي إنارة القلوب ، وتغذية العقول .

---

(١) صحيح مسلم : الحديث ذو الرقم ٤٥٤٥ .

فقد روى البخاري في صحيحه عن الهيثم بن أبى سنان قال : " رأيت أبا هريرة يوم جمعة يقص قائما فقال في قصصه : إن أخا لكم كان لا يقول الرفث " (يعنى عبد الله بن رواحه) ، فقال :[1]

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف [2]من الفجر ساطع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالكافرين المضاجع

فأبو هريرة يقصُّ يوم الجمعة في المسجد ، والقصُّ في الاصطلاح إنما هو الوعظ ، والإرشاد ،والتذكير ، ومن شأن الوعظ أن تكون فيه آيات من كتاب الله ، ومختارات من حديث رسول الله ﷺ ، ونّبذ من روائع الأخبار، وقد أضيف إليه عنصر الأدب ممثلا في الشعر .

وكان الذي جمع القرآن والحديث والشعر – على ما بين هذه الثلاثة من تفاوت كبير في القيمة والرفعة– أنها جميعاً إيمانية الغاية ربانية الاتجاه .

وجدير بنا أن نقف وقفة متأنّية عند نعت أبى هريرة لصاحبه عبد الله بن أبى رواحة ، فلقد قال عنه : إنه كان لا يقول الرفث ، والرفث هو الفاحش من القول فنظافة الأدب وبراءته من فاحش الكلام سمة من سمات الأدب الإسلامي ، أما الأدب الذي يصف العورات ، ويثير الشهوات ، ويستبيح الحرمات فهو أدب غير إسلامي كائنا من كان قائله.

٥- ثم إن النصوص تومئ إلى حقيقة أخرى هي أن المسلمين كانوا يفزعون إلى هذا الأدب في ساعات الشدة فتقوى به القلوب وتهتز له المشاعر فقد روى البخاري في صحيحه أن رجلاً سأل البراء – رضى الله عنه – فقال : يا أبا عُمارة أولّيتم يوم " حنين " ؟

قال البراء : " أما رسول الله ﷺ لم يولِّ يومئذ .. كان أبو سفيان بن الحارث آخذا بعنان بغلته فلما غشيه المشركون نزل فجعل يقول :

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

---

(١) ديوان عبد الله بن رواحه ، جمع الدكتور حسن باجودة : ٩٦

(٢) المعروف : هو الذي تعرفه العين ولا تنكره لظهور نوره

فما رئي من الناس يومئذ أشد منه ، وقد حدث نحو من هذا في يوم " الأحزاب " حين كان المسلمون يحفرون الخندق حول المدينة ، وهم يخشون أن يَدهمهم المشركون قبل أن يفرَغوا من عملهم ، وكان الجهد والجوع والإعياء قد تألبت عليهم ، وأخذت منهم كل مأخذ ...

في هذا الموقف العصيب كان الرسول الكريم ﷺ وصحابته الأخيار يستروحُون بالأدب ، ويتقوَّون به على مواصلة الجهد ، ويتغلبون بحلاوة جرسه على النَّصب ، فعن البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال :

"رأيت رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم " الأحزاب" ، وقد وارى التراب بياض إبطيه وهو يقول : (١)

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنْزِلَنْ سكينة علينا	وثبت الأقدام إن لاقينا
إنا إذا قوم بَغَوْا علينا	وإن أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته : "أبينا أبينا " (٢)

وواضح أن هذا النشيد نظيف الكلمات ، إيماني المنطلقات إسلامي المضامين ، فهو يشتمل على إشادة بفضل الله الذي هداهم للإسلام ويسر لهم القيام بفرائضه ، وعلى دعاء لله أن يثبت أقدامهم يوم الروع ، وينزل السكينة على قلوبهم في ساعات الفزع ، كما يشتمل على إعلان عن بعض مبادئهم ، فهم لا يريدون أن يبغوا على أحد ، ويأبون أن يبغي عليهم أحد أيضا ، وكل نشيد يتسم بنظافة الكلمة وإسلامية المضمون يمكن له أن يدخل رحاب الأدب الإسلامي من أوسع أبوابه .

٦- ثم إن النصوص تومئ إلى حقيقة أخرى ، هي أن الرسول ﷺ كان يأنس بالشعر ، ويسأل الرواة عنه ، ويُنصت إليه ويستزيد منه .

---

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام

(٢) هذه الآيات لابن الأكوع : انظر السيرة لابن هشام في ذكر غزوة الأحزاب .

و لكن حذار أن تظن أن هذا الذي يرضى رسول الله ﷺ هو كل شعر وإنما هو شعر ذو صفات محددة ... فقد روى مسلم في صحيحه عن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال :

" هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء " ؟ .

قلت : نعم . قال : " هيه " ، فأنشدته بيتا ... فقال : " هيه" ، ثم أنشدته بيتا ... فقال : " هيه " ، حتى أنشدته مائة بيت .

وفي رواية : " أنشدته مائة قافية " ، فجعل كلما مررت على بيت منها قال: " هيه " ثم قال ﷺ : (استسلم شعره) ، فهو كما نعته الرسول ﷺ شاعر أسلم شعره أو استسلم شعره ، وإن لم يسلم صاحبه .

٧- وهناك حقيقة أخرى هي أن الشعر كان ينشد في مجالس رسول الله ﷺ فكان يستمع له مع الصحابة الكرام ، وإن ذلك لم يحدث مرة أو مرتين ، وإنما حدث مرات كثيرة ، فقد حدث شريك عن سماك قال :

قلت لجرير بن سمرة : أكنت تجالس رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ، وكان[1] طويل الصمت قليل الضحك ، وكان أصحابه يذكرون عنده الشعر ، وأشياء من أمورهم ، فيضحكون ، وربما يتبسم ﷺ [2]

٨- ثم إن هناك حقيقة أخرى هي أن الرسول الله ﷺ شهد للأدب ممثلا في الشعر بأن بعضه حكمه ، كما شهد للبيان بأنه سحر ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : " إن من الشعر حكمة " ، كما روى عن عبد الله بن عمر أنه قال : قدم رجلان من المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما ، فقال رسول الله ﷺ : " إن من البيان لسحرا " .

---

(١) أي الرسول عليه الصلاة والسلام .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥ /٨٦ .

٩- وهناك حقيقة أخيَرة تومئ إلى أن الرسول ﷺ كان ينوه ببعض الشعر ويرفع بعضه على بعض لعناصر موضوعية توافرت له .. وفى مقدمة هذه العناصر الصدق ، فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ : " أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا اللهَ باطلُ　　　وكل نعيم لا محالة زائل [١]

ثانيًا: ما جاء عن رسول الله في ذم الشعر:

(أ) : **ما جاء في القرآن** : لعلك تقول : إن الله تبارك وتعالى قد أنحى باللائمة على الشعراء ، ووصفهم بصفات نالت منهم أقسى النَّيل ، وأوجعتهم أشدّ الإيجاع ، وذلك في قوله عزّمن قائل : " والشعراء يتبعهم الغاوون .ألم تر أنهم في كل واد يهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون) [٢]

فالآيات الثلاث تشير إشارة واضحة إلى موقف القرآن الكريم من هذا الفن ونظرته إلى أربابه من الشعراء .

وللإجابة عن ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن هذا الكتاب العزيز لا يحارب هذا الفن الأدبي لذاته ، وإنما يحارب فئة خاصة من الشعراء ، وهم أولئك الذين دأبوا على هجاء الرسول ﷺ كما يحارب الغاوين الضالين من الشعراء الذين جعلوا يتغنون بأشعارهم ويذيعونها بين الناس فكان الشعر شغلهم الشاغل الذي امتلأ به قلوبهم .

ثم أضاف إلى ذلك الشعراء الذين كانوا يهيمون وراء أحلامهم الضالة ، ويخضعون لانفعالاتهم الفاسدة ، ولا يميزون بين الحق والباطل ... فيمزّقون بشعرهم الأعراض، ويعرُّون النساء ، ويرمون المحصنات ، ويمدحون من لا يستحق المدح ، ويذمون من لا يستحق الذّم ، وهم فوق ذلك يقولون ما لا يفعلون ، فيشيدون بالجود مع أنهم لا يفعلونه ، ويذمون البخل وهم يأتونه . والدليل أن ذمَّ الشعر ليس على إطلاقه أن الله استثنى

(١) أخرجه الشيخان

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٦ .

من الشعراء فقال: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ... ﴾ [1] ، فالشعراء الذين آمنوا بالله ، واهتدوا بهديه ، واتبعوا الرسول الكريم ﷺ ، وساروا على نهجه ، وجندوا طاقاتهم لعمل الصالحات من الأفعال والأقوال ، وذكروا الله سبحانه ، وتحدثوا بآلائه ، قد استثناهم الكتاب الكريم من تلك الحملة التي حملها على الآخرين ، ورفع شأنهم على سائر الشعراء ، ووصفهم بأنهم ﴿آمنوا وعملوا الصالحات ﴾

وموقف القرآن الكريم من الشعر يبدو أكثر وضوحاً لو استعرضنا كل ما عرض من إشارات في القرآن إلى الشعر والشعراء وهي في ستة مواضع:

(١) ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ (الأنبياء /٥).

(٢) ﴿ والشعراء يتَّبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون ﴾ (الشعراء ٢٢٤ – ٢٢٧) .

(٣) ﴿ ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ (الصافات ٣٦ – ٣٧) .

(٤) ﴿ فذكِّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ (الطور٢٩–٣١) .

(٥) ﴿ فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾ (الحاقة ٣٨ – ٤١) .

(٦) ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر

---

(١) سورة الشعراء : ٢٢٧ .

من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾ (يسن ٦٩ - ٧٠) .
والمتأمل في هذه الآيات يرى أن الآيات لاتصف الشعر بخير أو شر ، وفي سورة الحاقة : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ لم تقل وما هو بشعر بل عبّرت بما يفيد نفى صفة الشعر عن النبي ﷺ أي نفى كونه شاعرا أما الآيات في سورة يسن ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ فإنها ــ برغم تصريحها بلفظ الشعر ــ تنص على نفي أن يكون النبي قد تعلم الشعر أي أن يكون شاعرا ، وإنما هو رسول يجيء بشيء غير الشعر ولغرض آخر غير ما يجيء الشعر من أجله وليس من العسير تعليم تأكيد القول بأن الرسول ليس شاعراً ، فمن المعروف أن العرب شأنهم في ذلك شان كثير من الشعوب الأولى في نظرتهم إلى الأدباء والفنانين حيث كانوا يظنون بعقول الشعراء الظنون ، فيعتقدون أحيانا أن بهم ما يشبه الجنون ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ أو أنّ بهم مساً من الجن أو أن بعض الشياطين يوحون إليهم بما يجرى على ألسنتهم من شعر ، وتلك حقائق لو لصقت بالرسول صفة الشاعر هي جديرة بأن تناقض معنى الرسالة والوحي ، ومن المعروف كذلك أن كثيراً من الشعراء في الجاهلية عرفوا بمسلك خُلقي يتسم بكثير من الإسراف في اللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر وغير ذلك حتى برئت بعض القبائل من مثل هؤلاء الشعراء ، ولعلنا نذكر في هذا المقام قول طرفه بن العبد :

وما زال تشرابى الخمورَ ولذّتى ... وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرةُ كلُّها ... وأُفردتُ إفرادَ البعير المعبّد

وهناك طائفة أخرى من الشعراء خلعتهم قبائلهم لسوء مسلكهم الذي كان يجرُّ على هذه القبائل كثيراً من الشر ، وهم الشعراء الصعاليك .

(ب): ذمُّ الشعر في الحديث النبوي :

رغم ما تقدم من أحاديث مدح للشعر ، فقد صحّ عن رسول الله ﷺ حديث واحد في ذم الشعر رواه البخاري ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود بوجوه

مسلم [1] عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه أنه قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج [2] إذ عرض شاعر يُنشد ، فقال رسول الله ﷺ "خذوا الشيطان ، أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً خيرٌ له من أن يمتلئ شعرا " . ولقد اجتهدت طائفة كبيرة من أهل العلم في معالجة هذا الحديث وتأويله تأويلاً يتفق مع الأحاديث الكثيرة الوفيرة التي أوردنا شيئا منها في مدح الشعر ، والثناء على قائليه ، وكان في طليعة هؤلاء السهيلي الذي استند إلى ما ذهبت إليه عائشة ـ رضى الله عنها ـ من أن المقصود بالشعر الوارد في هذا الحديث إنما هو الشعر الذي هُجي به الرسول ﷺ لا الشعر كله [3] ، ويؤكد هذا حديث رواه جابر وهو : " لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً أو دماً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً هُجيت به"[4] . فالشعر المذموم في هذا الحديث هو الشعر الذي هجى به الرسول الأعظم ﷺ

وذهب ابن حجر العسقلاني إلى أن الذين خوطبوا بذلك إنما كانوا في غاية الإقبال على الشعر والاشتغال به ، فزجرهم الرسول ﷺ عنه ليُقبلوا على القرآن الكريم وعلى ذكر الله تعالى ، فإذا أخذ المسلم من هذين الأمرين ما يجب عليه أن يأخذه فإن الشعر لا يضرُه بعد ذلك[5] .

وخلاصة القول :

أولا : أن الإسلام لا يحارب الشعر لذاته ، وإنما يحارب الفاسد من مناهج الشعراء ؛ ذلك لأن الشعر باب من أبواب الكلام ، وضرب من ضروبه ، فصالحه كصالح غيره من الكلام وهو مقبول ، وفاسده كفاسده وهو مرفوض ، وما يقال عن الشعر يقال عن فنون الأدب الأخرى كالخطابة والقصة ، والأقصوصة وغيرها ..

ثانياً : أن القرآن لم يُصدر حكماً على الشعر ولم يتخذ منه موقفاً خاصاً ، وإنما نفى عن النبي ﷺ أن يكون شاعراً من الشعراء أو أن تكون رسالته كرسالتهم " إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين ".

---

(١) صحيح مسلم : الحديث ذو الرقم ٢٢٥٩ كتاب الشعر .

(٢) مكان بين مكة والمدينة المنورة .

(٣) انظر الروض الأنف للسهيلي : ٥/٧٣- ٧٤.

(٤) انظر فتح الباري : ٣٩/٢٢ .

(٥) انظر فتح الباري : ٣٥٧/٢٢ .

الفصل الثالث

النثر في العصر الإسلامي

من فنون النثر في هذا العصر: الخطابة

لما كان مبدأ كل انقلاب عظيم فى أى أمة : إما دعوة دينيـــة وإمـــا دعـــوة سياسية ، وكانت تلك الدعوة تستدعى ألسنة الناس قوّالة من أهلها لتأييدهـــا ونشرها وألسنة من أعدائها وخصومها لإدخالها والصد عنـــها . وذلـــك لا يكون إلا بمخاطبة الجماعات - كان ظهور الإسلام من أهم الحوادث التـــي أنشَطت الألسن من عُقُلها وأثارت الخطابة من مكْمَنها فوق ما كانت عليـــه في جاهليتها فكان العمل الأكبر للرسول ﷺ بادئ أمره إلى جانب تبليـــغ القرآن وارداً من طريق الخطابة . ولأمرٍ ما جعلها الشـــارع شـــعار كـــل الأمور ذوات البال . ولذلك كان دعاة النبي ﷺ ورُسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه كلهم خطباء مصاقع ولسْنا مقَاول وكذلك فعل خلفاؤه مـــن بعده وعمالهم وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشعر الذي لا ينهض بأعبـــاء الخطابة ولا سيما الدينية لشرحها الحقائق بـــالحجج العقليـــة والوجدانيـــة وترغيبها في الثواب وترهيبها من العقاب ، وكان لهم من القـــرآن وأدلتـــه وحججه والاقتباس منه مددٌ أيُما مدد . ولما حدثت الفتنة بين المسلمين بعـــد مقتل عثمان . وافترقوا إلى عراقيين بزعامة علـــى - وشـــاميين بزعامـــة معاوية . ولكل منهم دعوة يؤيدها ويناضل عنها في تلك الحروب الشـــعواء التي لم يُنكب الإسلام بمثلها . ظهر من كلتا الطائفتين خطبـــاء لا يحصـــى عددهم ولا يُشق غبارُهم - وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء علـــى بـــن أبى طالب - وعلى رأس الشاميين معاوية بن أبى سفيان - ولم يعدم كل

طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أتوا مـــن البلاغـــة فـــي الخطابـــة والفصاحة والبيان . والخطابة وصلت في هذا العصر إلى أرقى ما وصلــت إليه في اللسان العربي حتى ممن يُعد عليهم اللحن ، ولـــم تســـعد العربيـــة بكثرة خطباء ووفرة خُطَب مثل ما سعدت به في هـــذا الصـــدر الأول . إذ كان القوم ورؤساؤهم عرباً خُلَّصاً يستمعون القول فيتبعون أحسنه .[1]

خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع

" الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعـــوذ بـــالله مـــن شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلـــل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم ــ عباد الله ــ بتقـــوى الله ، وأحثكـــم علـــي طاعتـــه، وأستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس ! اسمعوا مني أبين لكم ، فـــإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيـــها النـــاس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلي إن تلقوا ربكم هذا ، في شهركم هـــذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدهـــا إلي الذي ائتمنه عليها وإن ربا الجاهلية موضوع ، وإن أول ربا أبدأ به ربـــا عمي العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبـــدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وإن مـــآثر الجاهليـــة موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود وشبه العمد ما قتـــل بالعصـــا والحجر وفيه مائة بعير ، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها النـــاس ! إن الشيطان قد يأس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطـــاع فيمـــا سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس! ﴿ إنما النسيء زيادة فـــي الكفر يـــضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة مـــا حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ إن الزمان قد استدار كهيئته يـــوم خلـــق الله السموات والأرض ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتـــاب

(1) راجع جواهر الأدب ص/ ٣٧١

الله يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ﴾ ثلاثة متواليات وواحد فرد . ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً . ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت اللهم ؟ اشهد ، فلا ترجعنّ بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . أيها الناس ! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله اتقاكم ، إن الله عليم خبير ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد . قالوا : نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، فلا تجوز وصية لوارث في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى لغير أبيه أو تولّى غير مُواليه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل [1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته "

تعليق وتوضيح :

الخطبة موعظة رائعة ، يستهلها الرسول الكريم بتقرير وحدانية الله وأنه أتم نعمته علي الناس بإرساله إليهم كي يخرجهم مما هم فيه من غواية وضلالة

---

(١) صرف : توبة ، عدل : فدية

ويدخلوا في رعاية الإلهية ، فلا يعملوا عملاً بدونه . ليتركوا إذن الوراثة الضالة ، ويجتمعوا علي هدي الله وتقواه ، والرسول في كل ذلك يستوحي القرآن وآياته ، وهي تقف منارات في موعظته ، يستمد من إشعاعاتها ما يضئ به كلامه ، وأحيانا ينتقل في سرعة من مثل هذا الوعظ ومعانيه الروحية إلي تشريعات يتم بها قيام هذا المجتمع الإسلامي ويسود علي كل ما حوله ، وواضح أن الرسول ﷺ لم يكد يسلم بالحمد لله والشهادة والوصية بالتقوى حتى انتقل يبين طائفة من التشريعات الإسلامية التي أقامها الدين الحنيف حدوداً بين حياة العرب في الجاهلية وحياتهم في الإسلام ، فقد كانوا مفككين متنافرين يتحاربون دائماً طلباً للأخذ بالثأر ونهباً للأموال . وجمعهم الإسلام تحت لوائه في جماعة كبري متآخية متناصرة لا يبغي بعضها علي بعض . ولكي يقضي علي كل سبب للحروب بينهم رد دم القتيل إلي الدولة فهي التي تعاقب عليه ، ولكي يستأصل هذا الداء دعا إلي التنازل عن حق الأخذ بالثأر القديم ، وحرم النهب والسلب تحريماً قاطعاً مشدداً فيه العقوبة . والرسول يفتتح في الخطبة أوامر الإسلام ونواهيه بإعلان أن دماء المسلمين وأموالهم حرام ، وأن علي كل من كانت عنده أمانة أن يردها علي صاحبها ، وأن علي كل مسلم أن يرعى أخاه في ماله . فلا يأخذ منه شيئاً إلا بالحق ، ومن ثم حرم الربا وبدأ بعشيرته وتاجرها الموسر العباس بن عبد المطلب ، فأسقط عن رقاب المدينين له رباه . وعلي نحو ما أسقط الربا أسقط دماء الجاهلية ، فليس لمسلم أن يثأر لقتيل له ، وبدأ بعشيرته فأسقط دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب . ولم يبق من مآثر الجاهلية شيئاً سوي خدمة الكعبة وسقاية الحجيج ، وأوجب في قتل العمد القود . ولكن الدولة هي التي تقوم به ، وبذلك قضي الإسلام علي حروبهم الداخلية . وقد جعل في القتل شبه العمد مائة بعير. كل ذلك ليحفظ للجماعة وحدتها ويسود بين أفرادها السلام والوئام

ويحذر الرسول من الشيطان وغواياته ، محرماً التلاعب بالأشهر الحـــرم واضعاً تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، منها أربعـــة حُـرُمٌ : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب . ويرفع مـــن شـــأن المـــرآة ومعـــاني علاقاتها الزوجية , فيجعل لها حقوقاً وعليها واجبات ، وفي الطرفين جميعـاً يحفظ لها كرامتها كما يحفظ لزوجها نفس الكرامة . داعياً إلـــي التعـــاطف بينهما والتراحم والتعامل برفق وإحسان .

ــ ونلاحظ عقيب كل تشريع تكرار قوله ﷺ ألا هل بلغت اللهم فاشـــهد " للتنبيه على أهمية الموضوعات ، بل تنبيهاً على قيمة كل تشريع على حـــده ، وإبراءً لذمته ﷺ من المسئولية ، ولإقامة الحجة له ﷺ أمام الله ، وبياناً لمهمته ﷺ وهي التبليغ " ما على الرسول إلا البلاغ "

ــ كما نلاحظ تجنُّب الرسول ﷺ للسجع واللفظ الغريـــب ــ وهمـــا مـــن سمات خطابة الرسول ــ أما تجنبه للسجع فكراهيةً منه للتشـــبّه الكـــهان ، وأما تجنبه للغريب أو التكلف ؛ فلأن الله أمره أن يقول: ﴿ وما أنـــا مـــن المتكلفين ﴾ والحق أن سمات خطابة الرسول كثيرة لا تخفي على القـــارئ لخُطبه ﷺ

******

خطبة أبى بكر يوم السقيفة :

تمهيد : ولد أبو بكر في الجاهلية ، وكان أسبق الرجال إسلاماً ، وأكـــثرهم صحبة للرسول كان رفيقه في الغار كما كان هو صاحبه في نشر الدعـــوة وإظهار كلمة الله . وأكبرهم بلاءً في سبيل نشر الدين .

خلف رسول الله في حكم المسلمين ، فأعزّ الإسلام وجاهد في سبيله جـــهاد الأبطال المهابين حتى توفى عام ١٣هــ .

وكان لخبرته بالحياة ونشأته القرشية ، وتأدبه بالأدب الإســـلامي وببلاغـــة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أثر كبير في حكمته وبلاغته .

تعريف : يوم السقيفة هو يوم اجتماع العرب في سقيفة بنى ساعدة عقب وفاة الرسول للنظر فيمن يخلفه ، وتنافس في ذلك المهاجرون والأنصار ، حيث انقسموا حول اختيار خليفة رسول الله ﷺ واجتمع الأنصار جميعا في سقيفة سعد بن عبادة سيد الأوس والخزرج - وهى ظله كانت بالقرب من داره - يريدون انتخاب خليفة لرسول الله منهم ، وكانوا يؤثرون بالخلافة سعد بن عبادة ، وخطبهم سعد مبيناً ما للأنصار من الفضل والسبق إلى حماية رسول الله وأنه لا ينبغي أن ينازعهم أحد في هذا الأمر ، فرد عليه الأنصار جميعاً أوسهم وخزرجهم أصبت ووفقت ، ثم أخذوا يتشاورون ويقول بعضهم لبعض: فان أبى ذلك المهاجرون من قريش وقالوا نحن عشيرته وأولياؤه فماذا نقول لهم : فاجتمعوا على أن يردوا بقولهم " منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا ، فقال سعد لما سمعهما هذا أول الوهن "

بلغ نبأ هذا الاجتماع كبار الصحابة ، فمضى أبو بكر وعمر وغيرهما إلى السقفية مسرعين ، حتى وصلوا إليها ، وكان عمر يريد أن يتكلم بكلام هيَّأه في نفسه فقال له أبو بكر على رسلك ، وكان أبو بكر: رجلا وقورا فيه أناة فتقدم وخطب الناس فذكر تاريخ المهاجرين ومالهم من فضل السبق وتحمل المصاعب في سبيل الإسلام والرسول ثم كر على الأنصار فذكر مآثرهم وأثنى عليهم ولم يترك شيئاً مما لهم من المناقب إلا ذكره ثم روى لهم ما أثر عن رسول الله ﷺ من قولة الأئمة من قريش ، ثم قال " فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور " .

فلما أتم أبو بكر خطابه أخذ الأنصار يتجادلون ، ثم تقدم عمر وأبو عبيدة وكان أبو بكر يرشحهما للخلافة فقالا لأبى بكر ، والله لا نتولى هذا الأمر عليك فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا عليك ، ابسط يدك لنبايعك ، فمدّ عمر يده إليه فبايعه

ثم أبو عبيدة ثم المسلمون كافة ، وبهذا تمت الخلافة لأبى بكـــر . ووئــدت الفتنة في مهدها .

النص: حمد أبو بكر الله عز وجل وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس نحن المهاجرين أول الناس إسلاما وأكرمهم أحســـاباً وأوســـطهم دارا وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحما برســـول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقُدِمنا في القرآن عليكـــم ، فقـــال تبارك وتعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصـــار والذيـــن اتبعوهم بإحسان ﴾ [1] فنحن المهاجرين وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين ، وشركاؤنا في الفيء[2] وأنصارنا على العدو ، آويتم وواسيتم ، فجزاكـــم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحـــي مـــن قريش ، فلا تنقموا على إخوانكم ما منحهم الله من فضله [3]

تحليل وتعليق :

أ- بعد وفاة الرسول الأعظم كان الخلاف حول خلافة رسول الله شـــديدا ، فالأنصار مع ما بينـــهم مـــن خصومـــات جاهليـــة يريدونـــها لأنفســـهم ، والمهاجرون مع ورعهم وسابقتهم في الدين ونأيهم عن طلب شـــيء مـــن الدنيا ، يريدونها لهم ولكنهم لا يريدونها لأنها وظيفة دنيويـــة ، بـــل لأنـــها منصب ديني ، يتمكن منه الذي يليه من إعزاز راية الإسلام ونشر مبـــادئ العقيدة الإسلامية . وفى هذا الموقف يُمتحن أبو بكر امتحاناً شديداً ، فكـــل كلمة محسوبة عليه ، وكل حرف دليل لإدانة أو تهمة ، ويتبيـــن فـــي هـــذا الموقف عظمة أبى بكر وجلالته وبُعد فراسته أنه لم يطعن على أحد ، ولـــم يعب أحداً ولم يطلب لنفسه شيئاً وإن عظمة الموقف وخطر المناسبة لم تحل

---

(١) التوبة آية / ١٠٠

(٢) هو الغنيمة والخراج .

(٣) لا تنقسموا عليهم . أي لا تحسدوهم .

بينه وبين الجهر بالرأي والنطق بالحق ، وإصابة سواء المفصل ، وإقناع المسلمين بالحجة والبرهان . فماذا قال : حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله ﷺ

– ثم بين فضل المهاجرين وسابقتهم في الإسلام ، واستعدادهم لتحمّل أعباء السيادة وتكاليف الشرف ، مع مالهم من مجد وحسب وما يتصفون به من سماحة وجود وأريحية ومن كثرة عدد ، ومن شدة قرب من الرسول الأعظم بالنسب ، ومع مالهم كذلك من شرف تليد ومفاخر قديمة تقرّ بها العرب . ثم أصاب المحزّ بالاستدلال بالقرآن الكريم ، حين قدّمهم في الذكر على إخوانهم الأنصار .

(ب) ثم عاد إلى الأنصار ، فوصفهم بالأخوة في الدين وبالشركاء في الغنيمة وليس هناك وصف أبلغ من وصفه لهم بالأخوة ، وقد عادل في وصفهم لهم بين الأخوة في الدين والشركة في المال أي في الدنيا تمام المعادلة وأبلغها ثم كرر وصفه لهم بأنهم أنصار إخوانهم المهاجرين على الأعداء وذكر فضلهم بقوله : آويتم وواسيتم ، أي آويتم من لا وطن لهم وهم المهاجرين ، وواسيتموهم في المحنة والشدائد والخطوب حين عز النصر ، ثم دعا الله بأن يتولى الله جزاءهم الحسن .

– ثم عاد إلى تقرير الأمر ، وتوضيح الرأي ، وحل المشكلة بأن يكون من المهاجرين الخليفة ، ومن الأنصار وزراؤه وأعوانه وعلل ذلك تعليلا سياسيا بعيد النظرة ، وهو أن العرب لا تخضع ولا تدين بالطاعة إلا لقريش فخصص الخلافة بأن تكون من بين المهاجرين في قريش ، وليس أحد يستطيع أن ينافس قريشاً في المجد والشرف في العرب قاطبة .. وحث بعد ذلك الأنصار على قبول هذا الحكم ناهياً لهم أن يحسدوا إخوانهم المهاجرين على ما منحهم الله من فضله . وبذلك استقام الرأي ، واتضح وجه الصواب دون أن يسبّ أبو بكر أحداً ، أو يطعن على قبيل ، أو

يطلب لنفسه شيئاً ، وما أبلغ ما كرر أبو بكر من وصفٍ للأنصار بأنهم إخوان المهاجرين ، فالمسألة إذن لم تتجاوز حد الخلاف بين أسرة واحدة ، أشقاء أصفياء ، وما أكّده أبو بكر من أن تولّى أحد من الأنصار للأمر بعد رسول الله سوف يكون له نتائجه بين العرب ، وهم ما اعتادوا أن يقبلوا رياسة غير قريش عليهم .

إن يوم السقيفة هو يوم البيعة العامة لخليفة رسول الله ، وقد اتّسم هذا اليوم بمظهر ديمقراطي سليم ، فكان الصحابة وأعلام الإسلام كلهم قد اشتركوا في الرأي وانتهوا إلى ما انتهى إليه أبو بكر من أن الخلافة يجب أن تستقر في المهاجرين دون الأنصار وفى قريش خاصة من بين المهاجرين ، والأنصار لهم في ذلك منزلة الوزراء من الأمراء .

الصور الأدبية في النص :

١- هذه الخطبة تمثل في إيجازها ووضوحها وصدقها وبساطة أسلوبها وجلال مغزاها وروحها : البلاغة في أسمى منازلها ، والفصاحة في أعلى قممها ، فوصف أبى بكر للمهاجرين بالسابقة في الإسلام وصف أصاب به المحز ، و ما أروع ما وصفهم به من كرم الأحساب ، وما أروع الكناية عن السيادة بقوله "وأوسطهم دارا" والكناية عن السماحة بقوله (وأحسنهم وجوها) والكناية عن القوة بقوله (وأكثرهم ولادة في العرب) لأن الكثرة دليل القوة عن العقل .

٢- أما وصفه الأنصار بأنهم إخوان المهاجرين في الدين وشركاؤهم في الغنائم وأنصارهم على الأعداء فهو وصف دقيق بليغ ، وما أبلغ وصفه لهم بقوله :" آويتم" أي ضفتم المهاجرين الخارجين من وطنهم ومالهم ، وقبلتم ان ينزلوا في حمايتكم وفى ديـاركم وأموالكم ، ثم بقوله "وواسيتم" والمواساة / المشاركة في المحنة والشدة . وهذا من موجز اللفظ بليغه ودقيقه . وحقاً كان كذلك الأنصار بالنسبة للمهاجرين .

ومن سمات الخطبة :

- صحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها وقوة المنطق وصدق الحجة.
- ترتيب الأفكار وتنسيق الحجج . - إصابة المحز وبلوغ الهدف.

إن كل ذلك من خصائص بلاغة هذا النص الشريف ، ومن تأثير الإسلام والقرآن في الأدب والأدباء .

٣- وروح النص والتأثيرات المختلفة فيه ترشد إلى تأثره بالإسلام والقرآن في بلاغته .

******

النثر في عهد الخلافة الراشدة :

أثَّر القرآن الكريم وأحاديث رسول الله وخطبه على النثر في مكة وفي غيرها من الأمصار الإسلامية ، وذلك لما في القرآن من قوة بيانية رائعة في عرض موضوع قصصه أو عرض الموضوعات الأخرى .

وكانت القصة القرآنية تحتل مكانة كبيرة في نفوس القوم حيث يجلسون ويستمعون من خلال القصص القرآني إلى أخبار الأمم السابقة ، وما فيها من عبر ومواعظ فكانت تعمل تلك القصص على تنمية مواهبهم وشحذ قرائحهم وتنمى أخيلتهم في التعايش مع أحداث القصة . متبعين ما في القصص من وقائع .

ولقد عرفت القصة في مكة ، وعرفتها أنديتهم فهم بها في أنديتهم يسمرون وفى مجالسهم يتحدثون . وقد عرف بعض الناس في مكة يجيدون فن الحديث القصصي فيتجمع حوله الناس ويستمعون إليه ويعتبرون ما يقوله عادة صدقا.

ويذكر الرافعي كيف أن القصاص في مكة كانوا يحتلون مكانة كبيرة بين الناس ، فيقول " أول قاص من التابعين بمكة ، عبيد بن عمير الليثي ، وقد جلس إليه عبد الله بن عمر ، وسمع منه ، فكان ذلك داعية إلى إقبال الناس

ورغبتهم في استماع القصص لمكان ابن عمر من الدين والـــورع . وقــد أقرّته كذلك عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – ولم تنكر عليه فحـــدّث عطاء قال : دخلت أنا وعبيد عليها فقالت من هذا فقال : أنا عبيد بن عمـــر فقالت: قاص أهل مكة . قال نعم ، قالت : خفف فإن الذكر ثقيل .

وقد اتخذ معاوية قاصاً كان يجلس إليه متى انتهى من صلاة الفجر فلا غرو أن يتابعه أهل الشام في ذلك ويكثر القصص فيهم ولعل هـــذا مـــن دهـــاء معاوية في السياسة لإلهاء الناس " [1]

فالقصة سواء أكانت قرآنية أم غير قرآنية فإن فيها غذاء ثقـــافي ووجدانــــي يسرع الناس إليها وكلما كان القاص بارعاً في سرد أحداث قصصـــه كـــان جمهوره أكثر من غيره .

وفى مجال الخطابة شهدت مكة مسيرة المعارضة لعلى بـــن أبـــى طـــالب رضى الله عنه للمطالبة بالقصاص من قاتليه ، فخطبت الســـيدة عائشـــة ــ رضى الله عنها ــ خطبة في تلك المناسبة قائلة : " أيها الناس إن الغوغـــاء من أهل الأمصار .. وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتـــول ظلماً بالأمس ، ونقموا عليه استعمال من حدثتْ سنـــُه وقد استعمل أمثالـــهم قبله .. فلم يجدوا حجة ولا عذرا بادَروا بالعدوان فســـفكوا الـــدّم الحـــرام واستحلوا البلد الحرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحرام ، والله لأُصبـــع من عثمان خيرٌ من طباق الأرض أمثالهم " [1]

وخطبة السيدة عائشة – رضى الله عنها – دفاع عـــن مســـلك عثمـــان – رضى الله عنه – في الحُكم ، حيث عابوا عليه تولية صغـــار الســـن مـــن المسلمين مقاليد الأمور في بعض شئون المسلمين ، وكما عابوا عليه أيضـــا تقريب الناس من أهله والإغداق عليهم بالمال والمنـــاصب ، وقـــد تـــرك للمكّيين من المهاجرين في المدينة الحبل على الغارب فأخذوا يسيحون فـــي

---

(١) تاريخ آداب العرب – مصطفى صادق الرافعي ص/ ٣٨٠ جـ/ ١ .

(٢) جمهرة رسائل العرب – احمد زكى صفوت جـــ / ١ ص / ١٢٦ .

الأرض فاشتدت شوكتهم وأخذوا يفكرون بجدية في الحكم ولعل طلحة والزبير خير مثال على تلك الظاهرة .

ويمكن القول بأن خطبة الجمعة قد عملت على استمرار الخطابة وعملت بدورها على استمرار فن النثر في مكة بالإضافة إلى ما في تلك الخطب من توجيه وإرشاد . وإذا كان القصص القرآني وغيره من ألوان القصص قد احتل مكانة الشعر في مكة إلا أن فن النثر لم يزدهر ازدهاراً واضحا لأن الظروف العامة كانت هادئة والنثر يزدهر في ظروف الاضطرابات أو الدعوات الجديدة .

وقد قيلت بعض الخطب في مناسبات هامة مثل وفاة الرسول ﷺ. فحينما توفى رسول الله وأبو بكر بالسُّنح ـ من ضواحي المدينة ـ فلما بلغ أسماع أبى بكر أخبار النازلة خفَّ إلى بيت رسول الله ﷺ وعمر يخطب الناس وجمهور الناس في صخب واضطراب فدخل أبو بكر على رسول الله في بيت عائشة ودموعه على لحيته فكشف وجه رسول الله وقبله ثم ردَّ الثوب على وجهه وخرج عمر ومازال يخطب في الناس ، ويقول فيما يقول : إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وأن رسول الله مات، والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران فغاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع بعد أن قيل قد مات والله ليرجعنَ رسول الله فليقطعنَ أيدي رجال يزعمون أن رسول الله مات ولما خرج أبو بكر سمعه يقول ذلك القول أقبل على الناس وعلى عمر ، فقال له على رسلك يا عمر أنصت فأبى عمر أن ينصت لشدة اضطرابه وعظم ما فيه ، فلما رأى أبو بكر منه ذلك التفت إلى الناس وقال أيها الناس : من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، والله تعالى يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾ فلما سمعوا ذلك صعقوا ، وكأنهم لم يسمعوا مثل تلك الآية

حتى تلاها أبو بكر قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبــا بكــر يتلوهــا فعقرت حتى وقعت على الأرض وما تحملني رجلاي وعرفـــت وقتــها أن النبي قد مات وأراد أبو بكر وعمر أن يرجعا إلــى بيــت رســول الله ﷺ ففوجئا بأن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة فتوجها إليهم .

إن هذه الخطبة المزدوجة بين أبى بكر وعمر بن الخطاب لتبيـــن أمريــن هامين الأول مقارعة الأمر لا بنفيه ولكن بإثبات الـــرأي الآخــر ، فحيــن يحاول عمر بن الخطاب نفى موت رسول الله تشبيهاً موته بموت عيس بــن عمران وأنه في رحلة غياب وسيعود ، يؤكد أبو بكــر مــوت رســول الله ويذكر أنه لا بقاء إلا لله وحده . والأمر الآخر: يستشهد أبو بكــر بـــالقرآن الكريم على موت رسول الله ﷺ ويذكرهم بألا يفتنوا في الأمر بل عليـــهم السير في منهج رسول الله من الدعوة والثبات على الإسلام .

كما خطب أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ خطبة تناولت الملـــوك والفقــراء فقال " إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك فرفعَ الناسُ رؤوسهم فقـال: مالكم أيها الناس إنكم لطعَّانون عجلون ، إن من الملوك من إذا ملك زهَّـــده الله فيما عنده ، ورغَّبه فيما عند غيره ، وانتقصه شطر آجله ، وأشرب قلبه الإشفاق فهو يحسد على القليل ، ويسخط الكثير.. لا يســـتعمل العــبرة ولا يسكن إلى الثقة كالدرهم القيسي والسراب الخادع ، جذل الظـــاهر حزيــن الباطن فإذا وجبت نفسه وقضى عمره وضحى ظله حاسبه الله فأشدَّ حســابه وأقلَّ عفوه ، إلا أن الفقراء هم المحرومون . وخير الملوك من آمــن بـــالله وحكم بكتابه وسنة نبيه ﷺ وأنكم اليوم علـــى خلافـــة النبــوة ومعــرض المحبة. وسترون بعدى ملكاً عضوداً وملكا عنوداً وأمة شفاعاً ودماً مفاحـاً . فإن كان للباطل نزوة ولأهل الحق جولة يعفو بها الأثر ، ويموت لها البشــر فالزموا المساجد واستشيروا بالقرآن والزموا الطاعة ، ولا تفارقوا الجماعــة

وليكن الإبرام بعد التشاور أو الصفقة بعد طول التناظر ، إن بلادكم خرسة أن سيُفتح عليكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها [١] .

والخطبة يدور معناها حول معنى الزهد في الدنيا وعدم التطالب عليها فيتناول الملوك ويفسر حالتهم بأنهم بما عندهم من مال وسلطان ليسوا في راحة تامة فيقتلهم السلطان والخوف من ضياعه ويشغل بالهم المال ويخشون عليه من إقلاله ويحبون كثرته متطلعون دائما إلى ما هو أكثر في كل شيء . أما الفقراء أولئك الذين باتوا على الطوى يشكون الفاقة وقلة المال ليسوا محاسبين كما يحاسب الأغنياء ، بل هم أقل حسابا وأيسر عذابا من الملوك . ثم هو يضع الحل لكلا الطرفين بالالتجاء إلى الله والتمسك بسنة رسوله ﷺ

ويتحدث عمر بن الخطاب في خطبة عن تعمق المسلمين لما في القرآن الكريم ، وأنّ عليهم أن يرجوا به ما عند الله ، فقال " أيها الناس إنه أتى حين ، وقد خُيّل إليّ أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون به ما عند الناس ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم فإنا كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي ﷺ بين أظهرنا فقد رفع الوحي . وذهب النبي ﷺ فإنما أعرفكم بما أقول لكم ألا فمن أظهر خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه . فدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنكم إلا تدعوها تنزع بكم إلى شر غاية ، إن هذا الحق ثقيل مريء وأن الباطل خفيف وبيء ، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ، ورب نظرة زرعت شهوة ،وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً [٢]

ومن حسّه اللغوي ونقده للألفاظ ما روي عنه أن سائلاً سأل عمر بن الخطاب يا أمير المؤمنين أيُضحي بضبي قال : ماذا عليك لو قلت: ضحى

---

(١) د/ زكي عابدين ص/ ٤٥٣ ــ ٤٥٧ والنثر الفني وأثر الجاحظ فيه – دكتور عبد الحكيم بلبع ص ٨٨ .

(٢) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه – دكتور عبد الحكيم بلبع ص / ٨٩ .

بظبي ؟ قال إنها لغة قال: انقطع العتاب ولا يضحي بشيء من الوحش ، ومن نقد عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت وهو يتلو بعض الأشعار في المسجد يريد أن يصرفه عن ذلك فقال : أرغاء كرغاء البكر فقال حسان : دعني عنك يا عمر ! فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير على ذلك ! فقال عمر صدقت [1]

أما علي بن أبي طالب : فقد خطب يوم صفين فقال : " أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم ، ولكم على الحق مثل الذي لي عليكم فالحق أوسع الأشياء في التواصف وأضيقها في التناصف لا يجرى لأحد إلا جرى عليه ولا يجرى عليه إلا جرى له ، ولو كان لأحد أن يجرى له دون أن يجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه وتعالى دون خلقه لقدرته على عبادة ولعدله في كل ما جرت عليه حروف قضائه ولكنه جعل على العباد أن يضيّعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله . ثم جعل- سبحانه وتعالى – من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض فجعلها تتكافأ وجوهها ، ويوجب لبعضها بعضاً ولا يستوجب بعضها إلا ببعض ، وأعظم ما افترضه سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي فريضة فرضها الله سبحانه وتعالى لكل على كل فجعلها نظاما لألفتهم وعزاً لدينهم فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الوالي ، ولا يصلح الولاة إلا باستقامة الرعية فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه أدى الوالي إليها حقها وعزّ الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل ، وجرت على إذلالها السنن فصلح بذلك الزمان وطمع في بقاء الدولة ويئست مطامع الأعداء .. فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه [2]

وخطبة علي بن أبي طالب يوم صفين تتناول حق الراعي والرعية وأن الصلة بين الراعي والرعية صلة تربطهما ضوابط فعلى الرعية السمع والطاعة والاجتهاد في العمل وعلى الوالي العمل من أجلهم والسعي في

---

(١) دراسات في نقد الأدب العربي – دكتور بدوي طبانة ص / ٨٨ ، ٨٢ .

(٢) تطور الأساليب النثرية – أنس المقدس جـ/ ١ ص / ٢٢٣ .

سبيلهم والصلة بينهم صلة لكل على كل ، أما الصلة بالله فهي صلة الطاعة المستمرة بلا جدال في أمر من أمور الله عز وجل في خلقه .

والخطبة ليس فيها وعد أو وعيد ولكنه جدال بالإقناع وبالحسنى مستعيناً بما جاء في كتاب الله من أحكام .

ولقد أوردنا بعض خطب للخلفاء الراشدين الثلاثة في تلك الفترة خارج مكة ولاحظنا أن الخطابة كانت تنمو في ظل الأحداث شأنها شأن الشعر ، كما لاحظنا أن الخطابة كثيراً ما تعتمد على المنطق والاستشهاد بالقرآن الكريم والخطابة في مكة في عصر الخلافة الراشدة كانت على قلتها معبرة عن الأحداث السياسية كخطبة السيدة عائشة رضى الله عنها في مسيرة المعارضة لعلى بن أبى طالب . وقد عملت التيارات السياسية الممتدة على إيقاظ المشاعر فكان الأدب غزيراً شعره ونثره (١) .

******

الكتابةُ والتَّدوين :

نوّه الإسلام بالكتابة وفضلها منذ أول نزل القرآن ، فقال سبحانه : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ﴾ كما نوّه بالقلم فقال: ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ وبالكتاب فقال: ﴿ والطور وكتاب مسطور في رقٍّ منشور ﴾

وعمل الرسول ﷺ جاهداً على نشر الكتابة بين أصحابه ، حتى لنراه يجعل فداء بعض أسرى قريش ممن حذقوا الكتابة عشرة من صبيان المدينة(٢)

---

(١) راجع / د/ عابدين ص ٤٥٧ - ٤٥٩

(٢) راجع طبقات ابن سعد ج٢ق١ص١٤ والعصر الإسلامي شوقي ضيف ص/١٢٩ وما بعده .

وقد حثّ القـــرآن علـــى اســـتخدام الكتابـــة فـــي المعـــاملات ، فقـــال :
﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكـم كاتب بالعدل .. ﴾

وكانت الكتابة هي الوسيلة إلى نشر القرآن وتعلمه ، فقـــد كـــان الصحابـــة يكتبونه حتى يتحفظونه ، وكان هناك جماعة من الكتاب يكتبون القرآن بيـــن يدي الرسول مثل عثمان وعلى بن أبى طالب وأبي بن كعب وزيد بن ثـــابت وكان يكتب له في حوائجه خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان .. ومعنى ذلك كله أن الكتابة أخذت منذ هذا العصر تستخدم علـــى نطـــاق واسع لا في كتابة القرآن فحسب بل في كتابة كل ما يـــهم المســـلمين فـــي معاملاتهم وعقودهم ، وكان الرسول ﷺ يستخدمها فـــي جميـــع مواثيقـــه وعهوده وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده .

ونمضي في تلك الوثائق التي أرسلها الرسول ﷺ فنقرأ المعـــــاهدة التـــي كتبها بينه وبين قريش عام الحديبية والتي نصت على وضع الحرب عشـــر سنين ذمة لا تنكث وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهده دخل فيه . ونقرأ بعد ذلك كتابه إلـــى يهود خيبر ثم قسمة أموالها ، وتتوالى كتبه إلى الملوك يدعوهم إلى الإســـلام والتصديق برسالته ، وممن دعاهم النجاشي ملك الحبشة وهرقل ملـــك الروم والمقوقس صاحب مصر ..

ويتولى أبو بكر خلافة الرسول ﷺ ويرتد كثير من العـــرب فيجنـــد لـــهم الجيوش ويبعث مع قادتها بكتاب مفتوح يدعو الناس فيه إلى الاعتصام بدين الله وان من استجاب وكف وعمل صالحا قبل منه .. ومن أبى فلن يعجـــز الله وقوتل حتى يقر بالحق .. وولي عمر ، فتمت فى عهده فتـــوح إيـــران والشام ومصر ومع كل بلد تفتح كان أمراء الأجناد يكتبون لأهلـــها العقـــود والعهود ، وكان عمر لا يني عن مراسلتهم فى كل ما يهم من الأمـــر ، أو فيما يصل بمعاملة أهل البلاد المفتوحة وما يعطى لهم من عـــهود وعـــهده لأهل إيليا (بيت المقدس) مشهور وفيه يقول: " هذا ما أعطى عبد الله بـــن عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان : أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالـــهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها : أنه لا تسكن كنائســـهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء مـــن أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليـــا

معهم أحد من اليهود .وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية .. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمةُ رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين " وواضح أن عمر ترسم عهد الرسول لنصارى نجران وعلى نحو ما كان يستلهم صنيع الرسول في عهوده كان يستلهم وصاياه لولاته في سياسة الناس .. ومن خير ما أثر عنه في هذا الجانب رسالته إلى أبى موسى الأشعري واليه على البصرة وهى تمضى على هذا النحو [1] " بسم الله الرحمن الرحيم " أما بعد .. لأن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك ، فإن لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له . آس بين الناس في مجلسك ووجهك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا يخاف ضعيف من جورك البينة على ما ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالا أو أحل حرما ولا يمنعنك قضاء قضية بالأمس فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق ، فإن لحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك ، مما لم يبلغك في كتاب الله ولا في سنة النبي ﷺ أعرف الأمثال والأشباه ، وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى . واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينةً أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجّهت عليه لا قضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر .. "

والحق أننا لا نصل إلى عهد عمر حتى تصبح الكتابة جزءاً أساسياً في أعمال الدولة وحتى تتضمن كل تعاليمها وكل ما رسمته للمسلمين وأهل الذمة من العلاقات السياسية والاقتصادية في الخراج والغنائم وكل ما يتصل بأنظمة الشعوب المفتوحة . وعمر في كل ذلك يستلهم القرآن والسنة النبوية ويستشير أصحابه ، وهو في كل ذلك يجتهد ويفتح باب الاجتهاد لأصحابه فإذا قلنا بعد ذلك إن الكتابة رقيت في العصر رقيا بعيدا لم نكن مغالين إذ وسعت كل الحاجات السياسية التي جدّت وكل ما أعطى للمسلمين المحاربين والشعوب المفتوحة من حقوق .[2]

---

(١) البيان والتبيين جـ/ ٢ /٤٨ وما بعدها

(٢) د. شوقي ضيف بتصرف .

الفصل الرابع

شعراء صدر الإسلام

شعراء صدر الإسلام .....

جاءت دعوة محمد ﷺ فانقسم العرب تجاهه قسمين بين مؤيد ومعارض ، فالمؤيدون هم الذين آمنوا به وصدقوا بدعوته ، أما المعارضون فقد ناصبوه والإسلامَ العداء والسخرية والاستهزاء ..

وتبعاً لذلك كان لكل طائفة من ينتصر لها من الشعراء ، فمن الشعراء من آمن بالله رباً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فحسُن إسلامه وإيمانه ، فوقف يدعو إلي الإسلام ، ويزود عنه بلسانه وسنانه ، فلم يمر حادث إسلامي إلا وواكبه بشعره ؛ ولهذا كانت الأشعار التي نظمت في صدر الإسلام ، دليلاً على دور الشعر في مساندة الدعوة الإسلامية .

وفي المقابل كانت الفئة الضالة المعارضة ـــ من الشعراء ـــ ممن طمس الله علي بصيرتهم ، فراحوا يصدُّون عن سبيل الله متخذين من أشعارهم أداة إيذاء لرسول الله ﷺ وأتباعه الكرام تثبيطاً لهمتهم وإضعافاً لعزيمتهم فلما انتقل الرسول إلي الرفيق الأعلى وجاء عصر الخلفاء الراشدين ظهرت في عهد أبي بكر بوادر الرِّدة ، فوقف ـــ رضي الله عنه ـــ وقفة البطل الجسور ، وكان للشعر والشعراء دور بارز في تصوير تلك الحروب في وجه المرتدين .

وبعد حروب الرِّدة انشغل المسلمون بالفتوحات الإسلامية ، فكان ذلك ضرباً جديداً من ضروب الشعراء واندفاعهم في مصارعة الأعداء باللسان وتصوير ما كان من بطولات إسلامية خالدة سجلتها روائع الشعراء .

إذن فملكة الشعراء الذين آمنوا لم تفتر بإسلامهم ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأنهم عاشوا في الإسلام وكانوا من قبل في الجاهلية شعراء ، يعبرون بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم ، فلما أتمَّ الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه [(١)]

---

(١) راجع العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف ص ٤٢ .

أغراض الشعر في صدر الإسلام :

استجابت تلك الفنون الشعرية للتغيرات الجديدة التي أصابت المجتمع الإسلامي ، ومن ثم وجدنا الشعر الإسلامي ينفر من بعض الأفكار والأغراض التي رفضها الشرع الإسلامي ومجها الذوق الإنساني ، فمضي الشعر في طريق إسلامي بعيدا عن روح العصبية وسمات الفخر القبلي ، تاركا وراءه عادات الجاهلية كلها ، من وصف الخمر ، ومجالس الشراب واللهو .. إلي غير ذلك من أخلاق الجاهلية التي رفضها الإسلام . لقد ارتدى الشعر حينئذ رداء الفضيلة ومضي ينشد المثل والقيم المحمودة ، وقام بدوره في الدفاع عن الدعوة ، فتآزرت اللسان والسنان في مواجهة أعداء الله ، والانتصار لرسول الله! ﷺ

المدح : وهو يعني إبراز الفضائل وتعداد المناقب و المحامد لشخص ما ، قام بعمل عظيم ، فاستحق الإشادة بذكره . وكان المدح في الجاهلية يوجه إلي العشيرة والقبيلة ممثلة في ذلك الممدوح ، كما كان — أحيانا — يؤدى رغبة في العطايا والمنح .

وقد قام المدح الإسلامي علي ما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ ، يمتدح بها من يلتزم بها ؛ ولهذا كثر مدح الرسول ﷺ والمسلمين .

كما أن كثيرا من شعراء المشركين قد أسلموا حين الفتح وبعده ، فكانوا دليل صدق للدعوة ، وبرهانا قائما يشهد بنبوته وبعثته ﷺ ، وهؤلاء الشعراء قدموا كثيرا من المدح لرسول الله ﷺ ، وربما خلطوا بين المدح والاعتذار عما كان منهم قبل إسلامهم ، ومن الشعراء الذين برزوا في المديح : حسان بن ثابت وكعب بن زهير والعباس بن مرداس بعد إسلامه. ومن أجود ما قاله حسان بن ثابت في الرسول ﷺ قوله : (١)

(١) ديوان حسان بن ثابت ص٣٣٨.

أغرّ عليه للنبـــــوة خاتـــم من الله مشهود يلــــوح ويشهـــــد
وضمّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهـــــد
وشــقّ له من اسمــــه ليـُعزّه فذو العرش محمود وهـــذا محمـــد
نبــيّ أتـــانا بعد يأس وفتـــرة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد
فأمسي سراجاً مستنيراً وهادياً يلـــوح كمـــا لاح الصقيـــل المهنّد
وأنذرنا ناراً وبشـــر جنـّـــةً وعلمنــــــــا الإســــلام فالله نحمد

ومن ذلك أيضاً : قصيدة كعب بن زهير اللامية المشهورة (١) وأولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم مـــــــتبول متيم إثرها لم يفد مكـــــبول (٢)

ومن أبياتها :

كل ابن أنثي وإن طالت سلامـــته يوماً علي آلة حدبـــاء محمـــول
نبّئت أن رسول الله أوعــــــــدني والعفو عند رســـول الله مـــأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـــ ـــقرآن فيها مـــواعيظ وتفصيـــل
لا تأخذنّي بأقوال الوشـــــاة ولم أذنب ولو كثرت فـــيَّ الأقاويل
إن الرسول لنور يستضــــــاء به مهند من سيوف الله مسلـــول (٣)

ثم يمدح صحابة الرسول ﷺ فيقول :

في عصبة من قـــريش قال قائلهم ببطن مكة لمـــا أســـلموا زولوا(٤)
زالوا فما زال أنكاس ولا كُشف عند اللقـــاء ولا ميـــل معازيل (٥)

---

(١) ديوان كعب بن زهير ص٦ وما بعدها والسيرة النبوية لابن هشام جـ٤ ص ٥٠١ وما بعدها .

(٢) بانت : فارقت ، متبول : معزم ، مكبول : مقيد .

(٣) المهند : السيف المصنوع من حديد الهند وهو خير السيوف ، مسلول : مـــنزوع من غمدة في مواجهة الباطل انتصاراً للحق .

(٤) عصبة : جماعة المهاجرين ، زولوا : انتقلوا من مكان إلي آخر .

(٥) الأنكاس : جمع نكس : الضعيف ، الكشف : جمع أكشف وهو من لا يملك عُـدة الحرب وعتادها ، أو من انهزم في المعركة ، والميل : عدم الثبات علي الســـرج ، المعازيل : جمع معزال وهو من ليس معه سلاح .

شم العرانيـــن ، أبطال لبوسهم   من نسج داودَ في الهيجا سرابيل[١]

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم ضرب اذا عرّد السود التنابيل [٢]

وهو في هذا البيت الأخير يعرّض بالأنصار ـ لغلظتهم عليـه حين جاء رسول الله تائباً ، فأنكرت قريش ما قاله فيهم ، وقالوا : لم تمدحنا إذ هجوتهم ولم يقبلوا منه ذلك ، فقال كعب مشيداً بالأنصار وبإخلاصهم للدعوة وتفانيهم في الدفاع عن الرسول ﷺ والإسلام وترضية لهم : [٣]

من سرّه كرم الحياة فلا يزل   في مقنب من صالحي الأنصار [٤]

ورثوا المكارم كابراً عن كابر   إن الخيار همُ بنو الأخيار

المكرهين السمهري بأذرع   كسوالف الهندي غير قصار [٥]

والناظرين بأعين محمرة   كالجمر غير كليلة الأبصار

والبائعين نفوسهم لنبيهم   للموت يوم تعانق وكرار

ضربوا علياً يوم بدر ضربة   ودانت لوقعتها جميع نزار [٦]

لو يعلم الأقوام علمي كله   فيهم لصدقني الذين أماري [٧]

قوم إذا خوت النجوم فإنهم   للطارقين النازلين مقاري [٨]

---

(١) شم العرانين : الشم حدة في طرف الأنف وهي كناية عن العزة والإباء والعرانين: جمع عرين بكسر العين : الأنف أو طرف الأنف ، السرابيل جمع سربال وهو القميص أو الدرع .

(٢) الجمال الزهر : البيضاء الصافية اللون ، التعريد : الجبن والفرار ، والتنابيل : جمع تنبال وهو القصير .

(٣) السيرة النبوية جـ٤ ص ٥١٤ .

(٤) المنقب : الجماعة من الخيل يريد به القوم علي ظهور جيادهم .

(٥) السمهري : الرمح ، سوالف الهندي : يريد حواشي السيوف وقد يراد به الرماح أيضاً لأنها قد تنسب إلي الهند .

(٦) علياً يريد علي بن مسعود بن مازن الغساني ، واليه تنسب بنو كنانه لأنه كفل ولد أخيه عَبد مناة بن كنانه بعد وفاته ، فنسبوا إليه .

(٧) أماري : أجادل .

(٨) خوت النجوم : أي سقطت ولم تمطر في نوئها ، والطارقون : الذين يأتون بالليل والمقاري : جمع مقراة وهي الجفنة التي يصنع فيها الطعام للأضياف ، يريد أنهم يكرمون الأضياف في وقت الشدة .

في الغُرّ من غسان من جرثومة أعيت محافرها علي المـــنقار

ومن ذلك ــ أيضاً ــ ما قاله العباس بن مرداس مادحاً لرسول الله:

نبي أتانا بعد عيســي بناطــق من الحق فيه الفصل منه كذا لكا

أميناً علي الفرقــان أول شافع وآخر مبــعوث يجيب المــلائكا

ومن خير ما قيل في مدح المصطفي ﷺ ما قاله " حسان بن ثابت " أمـــام وفد بني تميم وهي قصيدة طويلة تجمع بين المدح والفخـــر ومـــن أبياتـــها قوله : (١)

إن الذوائب من فهر وإخوتــــهم قد بيّنوا ســـــــنة للناس تتبــعُ

يرضي بها كل من كانت سريرته تقوي الإله وبالأمر الذي شــرعوا

قوم إذا حاربوا ضرُّوا عدوهـــــمُ أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غيرُ محـــــدثة إن الخلائق ــ فاعلم- شرها البدع

إن كان في الناس سبّاقون قبلهــمُ فكل سبق لأدني سبقـــــــهم تبــع

لا يرقع الناس ما أوهت أكـــــفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعــوا

ولا يضنـــون عن جار بفضـــلهمُ ولا يدنسهم في مطـــــمع طبـــع

لا يجهلون وإن حاولت جهلهم في فضل أحلامهم عن ذاك متسع

أعفةٌ ذُكرت في الوحي عفتــــهم لا يطبعون ولا يرديهمْ الطـمع(٢)

كم من موالٍ لهم نالوا كرامــته ومن عدو عليهم جاهدٍ جـــــدعوا

أعطوا نبي الهدي والبر طاعـته فما وني نصرهم عنه وما نزعوا!(٣)

أكرم بقوم رسول الله قائـــــــدهم إذا تفرقت الأهـــواء والشيـــع

هذا هو شعر المدح المتأثر بالقرآن الكريم أسلوباً ، فكـــان نـــاصع البيـــان مضطرد السياق واضح الطريقة سهل ممتنع ، فهل يوصـــف هـــذا الشـــعر

---

(١) ديوان حسان ص ٢٣٨ وما بعدها ط دار المعارف تحقيق د/ سيد حنفي حسنين .

(٢) روي (ولا يرديهم الطمع) وذلك في بعض النسخ .

(٣) الذوائب : الأشراف ، فهر آل قريش ، والأشياع : الأتباع ، والمناصرون السجية : الطبيعة ، يرديهم : يهلكهم ، العفة : الطهارة والنقاء .

باللين والضعف ، كما يُدّعى ؟ إلا أن يعد البعد عن الخشونة والسمو في المعاني ضعفا ولينا ! [1]

الفخـــر : كان في الجاهلية تعداداً للمناقب الفردية والمآثر القبلية من فروسية ، وما يتصل بها من شجاعة وإقدام أو عفو وانتقام أو نجدة للمظلوم وحماية للجار وقدرة علي أخذ الثأر ، والتباهي بذلك بين أفراد القبيلة أو المجتمع ..

أما في الإسلام – فهو تعداد للمآثر و المحامد التي اصطفاها الإسلام من حياة العرب الجاهليين مع صبغها بالصبغة الإسلامية إلي جانب الفخر بما اهتمّ به الإسلام أو أضافه من مناقب جديدة كالإخلاص للدعوة الإسلامية والبعد عن الشرك والوقوف في وجه المشركين ، إحقاقاً للحق وانتصاراً لرسول الله ﷺ .

ومن ثم صار فخراً جماعياً يظلل المسلمين جميعاً ، ويصهرهم في بوتقة واحدة ، وهكذا نجد شعر الفخر في صدر الإسلام موجهاً ضد أعداء الإسلام في مباهاة بنصر الله للمسلمين علي المشركين ، ومن خلال ذلك تكثر الأحاديث عن المعارك الإسلامية وأحداثها وما يتعلق بها .

إذن فالفخر في عصر النبوة تغلب عليه الروح الجماعية ، ومن ثم فهو مليء بالحديث عن الحرب وما يتعلق بها من وصف المعاقل والخصوم وآلات القتال والإقدام دون رهبة من عدو ، وهو أيضاً يدخل في شعر الفتوحات ؛ ولذا نجد بعد فتح مكة ودخول جيش الإسلام وعلى رأسه النبي ﷺ نجد حسان يفخر بانتصار الإسلام بهذا الفتح في قصيدته :

عفت ذات الأصابع فالجواء ...

كما نجد كذلك قول حسان بن ثابت مفتخراً بما صنعه المسلمون في أعداء الإسلام في معركة الخندق : [2]

---

(١) راجع الأدب في عصر النبوة والراشدين د. صلاح الدين الهادي صـ / ٢٥١

(٢) ديوان حسان بن ثابت تحقيق د/ سيد حنفي حسنين ط/دار المعارف ص / ١٣٤ .

عرفتَ ديارَ زينبَ بالكثيـب كخطِّ الوحي فـي الـرقِّ القشـيب
تـُعاورها الرياح وكلُّ جَـون من الوسـميِّ منهمرٍ سكـوب[1]
فأمسي رسمها خَـلـقاً وأمست يبـاباً بعد سـاكنـها الحبيـب [2]
فدع عنك التذكرَّ كلَّ يـوم وردُّ حرارةَ الصـدر الكئيـب
وخبِّر بالذي لا عيـبَ فيـه بصدق غيـر إخبـار الكـذوب
بما صنع المليكُ غداةَ بـدر لنا في المشركين مـن النـصيب [3]
غداة كأن جمعهمُ حـراءٌ بدتْ أركانـه جنـحَ الـغـروب
فلاقيـناهمُ منـّـا بجمـع كأسـْد الغاب من مـرد وشيـب
أمـام محمـد قـد آزروه علي الأعداء في وهـج الحروب [4]
بأيديهم صوارم مرهفـاتٌ وكل مجـرَّب حـاظي الكـعوب [5]

ويصور حسان ما فعله المسلمون من قتل أكابر المشركين فيقول مفتخراً:

فغادرنـا أبا جهل صريـعاً وعتبة قـد تركنا بالجـبُوب [6]
وشيبة قد تركنا في رجـال ذوي نسب إذا نسبـوا خصـيب
يناديهم رسـول الله لما قذفناهـم كبـاكـب فـي القليـب
ألم تجدوا كلامـي كان حقاً وأمـر الله يـأخـذ بالقلـوب
فما نطقوا ، ولو نطقوا لقالوا صـدقت وكنت ذا رأي مصـيب

---

(١) الوسمي : مطر أول الربيع وقيل آخر الخريف . وجون : الجون الأسود المشرب بالحمرة (وجون من الوسمي) يقصد مطر أول الربيع المنهمر من الغمام الأسـود الأحمر كناية عن كثرة الماء وغزارة المطر .

(٢) يباباً : خراباً ومثلها خلقا بمعني خرب وبمعني بلي .

(٣) يريد نصر الله المؤزر للمسلمين علي المشركين في غزوة بدر .

(٤) وروي وازروه : من وزر والوزر الملجأ فهو في كلام العرب الجبل الذي يلجـأ إليه ، هذا أصله وكل ما التجأت إليه وتحصنت به فهو وزر .

(٥) الصوارم : القواطع والمراد السيوف ، مرهفات : أي رقت حواشيه لأن الرهـف الرقة والسيف المرهف الرقيق وهذا حسن له إذ هذا النوع من السيوف شـديد القطـع لدقته.

(٦) الجبوب : جمع جب وهو البئر .

ويفخر حسان بنصر الله فيصور بطولة الرسول ﷺ ومن معه من المسلمين يوم بدر وقد استعصموا بحبل الله فيقول : [1]

مستشعري حلق الماذي يقدمهم ... جَلْدُ النحيزة ماضٍ غيرُ رِعْديد [2]

أعني الرسول فإن الله فضّله ... علي البرية بالتقوي وبالجود

مباركٌ كضياء البدر صورته ... ما قال كان قضاءً غير مردود

مستعصمين بحبلٍ غير منجذم ... مستحكم من حبال الله ممدود [3]

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه ... حتى الممات ونصر غير محدود

الهجاء : وهو يعني السب وتعداد المعايب أو الرمي بالنقائض مع نزع المناقب وسلب الفضائل ، وقد قام شعراء المسلمين بالرد علي هجاء المشركين للرسول وصحابته ، ولكنه لم يقم علي الإفحاش والإقذاع الذي كان سمة الهجاء في الجاهلية ، وإنما غلبت روح الإسلام علي شعراء المسلمين فمضوا يهجون المشركين بتعبيرهم بالكفر ووصفهم بالمثالب ، وفي كتاب الأغاني للأصفهاني: (أن حساناً وكعباً كانا يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحه يعيرهم بالكفر ، فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحه ، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحه) [4]

ومن أمثلة ذلك قول حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب فيقول : [5]

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوّف نخب هواء

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ٢٤٢ .

(٢) مستشعري حلق الماذي : علامتهم حلق المغفر والدروع الذي يلبسونه وهذه علامتهم وسمتهم . جلد النجيزة : جلد : صلب النجيزه : الطبيعة .

(٣) مستعصمين : العصمة : المنع أي لا يصيبهم أذى إذ هم معتصمين بحبل الله غير منجذم : غير مقطوع .

(٤) الأغاني ج ٤ ص ١٣٨ .

(٥) ديوان حسان بن ثابت ص٧٥ .

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ... أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصتره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

ومن أمثلة ذلك قول كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي في هجاء أحبار بني النضير الذين تآمروا علي رسول الله ﷺ وحاربوا دعوته مع علمهم بصدق نبوته وبعثته ﷺ يقول كعب :

لقد خزيت بغدرتها الحبور ... كذاك الدهر ذو صرف يدور[1]
وذلك أنهم كفروا برب ... عزيز أمره أمر كبير
وقد أتوا معافهما وعلما ... وجاءهم من الله النذير[2]
فقالوا : ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
أري الله النبي برأي صدق ... وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم ... وكان نصيره نعم النصير
فغودر منهم (كعب) صريعا ... فذلت بعد مصرعه النضير[3]
فما كره فأنزله بمكر ... و(محمود) أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء ... أبارهم بما اجترموا البير[4]
غداة أتاهم في الزحف رهوا ... رسول الله وهو بهم بصير[5]
فذاقوا غب أمرهم وبالا ... لكل ثلاثة منهم بعير[6]

---

(١) الحبور جمع حبر وهو العالم ذميا كان او مسلما وجمعه أحبار وحبور ، والمراد هنا : أعلام اليهود وقادتهم في بني النضير ومن بني قريظه .
(٢) أتوا معافهما وعلما : أعطاهم الله التوراة وفيها العلم والنور .
(٣) كعب الأحبار وكان من بني قريظة وقد شارك بني النضير في التآمر علي قتل الرسول ﷺ
(٤) البير : المهلك ، اجترموا : بمعني أجرموا .
(٥) رهوا : الرهو من الأضداد بمعني السير السهل المتتابع ، وبمعني السير السريع .
(٦) غب أمرهم : عاقبة أمرهم ، وبالا : شدة وخيمة .

ومن أمثلة ذلك قول كعب بن زهير قبل إسلامه يهجو أخاه بجـــيرا حيــن أسلم وقد آذي ذلك رسول الله ﷺ فتوعده ، يقول كعب :[1]

ألا أبلغا عني بجيرا رســالــة فهل لك فيها قلت ويحك هــل لكــا

شربت مع المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكـــــا [2]

وخالفت أسباب الهدى وتبعتــه علي أي شيء ــ ويب غيرك ــ دلكا[3]

علي خلق لم تلف أما ولا أبــا عليه ولم تــدرك عليـــه أخــا لك

وقد أجابه بجير بقوله :[4]

من مبلغ كعبا فهــل لك في التي تلوم عليها باطلا وهي أحــزم

إلى الله لا العزى ولا اللات وحده فتنجو إذا كان النجاء وتســـلم

لدي يوم لا ينجو وليس بمفلــت من النار إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير وهــو لا شيء دينه ودين أبي سلمي علي محـــــرم

******

الهجاء و فن النقائض : ونتيجة لمعارك الهجاء الضارية التـــي توهجــت وعلا أوارها بين الشعراء المسلمين والشعراء المشركين ، تطرق هجــاؤهم إلى ما يعرف بالنقائض وهو فن وجدت بذوره في الجاهلية بيـــن شـــعراء هذيل وشعراء الأوس والخزرج وغيرهم في الجاهلية ، واتسعت رقعة هــذا الفن في الإسلام . ويعتمد هذا الفن على نقض الشاعر للمعاني التي جــاءت في قصيدة الآخر عن طريق قلب معانيه من فخر إلى هجاء فينسب الفخــر لنفسه والهجاء لخصمه ملتزما الوزن والقافية التي بنـــى عليــها صاحبــه قصيدته وتسمى الأولى نقيضة بمعنى منقوضة والثانيـــة نقيضــة بمعنــى

(١) مقدمة الديوان ص٣ والسيرة النبوية جـ٤ ص ٥٠٢ط المكتبة العلمية بيروت .

(٢) المأمون : الرسول ، النهل : الشرب الأول العلل : الشرب الثاني .

(٣) ويب غيرك : هلكت هلاك غيرك وويب بالنصب علي إضمار فعل

(٤) مقدمة الديوان ص٤ والسيرة النبوية جـ٤ ص ٥٠٢ .

ناقضة وعلى الرغم من أن النقائض أيام الرسول تعـــد امتــداد لنقــائض الجاهلية فإن تغييرا يسيرا قد أصابها حيث تميزت بسمو الموضوعات التي عالجتها ونبل الغاية التي قصدت إليها .

وكان من أبرز الشعراء الذين دافعوا عن الدعوة الإسلامية حسان وكعـــب وابن رواحه ولم يكن شعرهم شعر أناقة وطرف على النهج الذي ألفوه فـــي الجاهلية وإنما كان شعر منافحة ودفاع عن الإسلام ورســـوله والمؤمنيـــن وكان الأنصار أول الأمر يخشون أن يهجو حسان مشركي قريش فيصيـــب النبي في نسبه ومن هنا ذهب حسان إلى بكر ليعلمه الأنساب وعاد ليقـــول إني أسلك يا رسول الله منهم كما تسل الشعرة من العجيـــن فكـــان حســـان وكعب يعارضان المشركين بمثل الوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمسالب وكان عبد الله بن رواحه يعيرهم بالكفر فلما أسلموا وفقهوا الإســـلام كـــان هجاء ابن رواحه أشد عليهم من هجاء صاحبيه ومن أمثلة هذه النقائض قول عمرو بن العاص :يوم نصر قريش في أحد لما هزم المسلمون

تمنت بنو النجار جهلا لقاءنـــــا لدى جَنب سلعٍ والأماني تصـــدق
فما رعهم بالشر إلا فجـــــــاءة كراديس خيل في الأزقّة تمـــرق
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنـــــا ودون القباب اليوم ضرب محرق
كأن رؤوس الخزرجيين غـــدوةً وأيمانهـــم بالمشرفيـــة بروق [1]

فنقض كعب بن مالك ما قاله ابن العاص سالكا معه ســـبيل التوجيـــه دون تخاذل فى هذه المعركة بل صور المسلمين فى صبرهم وإصرارهم علـــــى الحق وتمسكهم بقيادة النبى (ص) ، فقال :

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها وعندهم من علم اليوم مسبق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب صبرنا وراية المنية تخفـــق

---

(1) راجع السيرة النبوية لابن هشام جـ٣ / دار الجيل بيروت لبنان١٩٨٧ صـــ ٧٥
والبروق : نوع من النبات له رؤوس تشبه البصل

صبرنا لهم والصبر منا سجية إذا طارت الأبرام نسمو ونرتقى
لنا حومة لا تستطاع يقودهـا نبى أتى بالحـق عف مصـدق

وقد افتخر " هبيرة بن أبى وهب " بالجموع الحاشدة من قريش ، فقال :

سقنا كنانة من أطراف ذي يمن عرض البـلاد على ما كان يزجيها
قالت كنانة :أنى تذهبون بنـا ؟ قلنا : النخيل فأموهـا ومـن فيها
نحن الفوارس يوم الجر من أحد هابـت معـد فقلنـا نحن نأتيهـا

فأجابه حسان سالكا طريق التهديد والوعيد ، فقال :[١]

سقتم كنانة جهلا مـن سفـاهتكم إلى الرسول فجند الله مخزيها
أوردتموها حياض الموت ضاحية فالنار موعدهـا والقتل لاقيها
جمعتموهـا أحابيشـا بلا حسب أئمة الكفر غرتكم طواغيهـا
ألا اعتبرتم بخيـل الله إذ قتلـت أهـل القليب ومن ألقينـه فيها

الاعتذار: وهو فن من الفنون التي عرفت في صدر الإسلام ، وهو اعتـذار عما سلف وتأكيد العزم على التوبة والندم على ما فرط الشاعر في جنـب الله ورسوله ، ففي صدر الإسلام رقت قلوب كثـير مـن الشـعراء بعـد إسلامهم ، عد ما وقفوا موقفا معاديا لرسول الإسلام ومن هؤلاء الشـعراء عبد الله الزبعرى وأبو سفيان بن الحارث وأنس بن زنيم وأسيد بـن أبـى إياس وكعب بن جهير .. وغيرهم ممن اعتذروا عما بدر منهم وندموا علـى شعرهم من ذلك قول بن الزبعرى ملتمسا أن يتقبل الرسول ﷺ معذرتـه ، يقول:[٢]

منع الرقاد بلابـل وهموم والليـل معتلـج الرواق بهيم
مما أتاني أن أحمـد لامنـي فيـه فبـت كأننـي محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سـرح اليديـن غشوم
إني لمعتذر إليـك مـن التـي أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

---

(١) المرجع السابق ص / ٦٤

(٢) أثر الإسلام في الشعر في عصر رسول الخلفاء الراشدين صـ / ٩٨

أيام تأمرنـــي بأغـــوى خطة سهم ، و تأمرني بها مخـــزوم
فاليـــوم آمـــن بالنبـــي محمّـــد قلبي ومخطـــئ هـــذه مخزوم

وها هو ذا كعب يتقدم بقصيدته اللامية المشهورة بانت سعاد فقلبـــي اليـــوم متبول ... مادحا ومعتذرا لما فرط منه في جنب الرسول بعدما أهدر دمـــه وظل ينشد الرسول حتى فاز بالقبول !

الغـــزل : هو الحديث عن المرأة والإشادة بجمالها وهـــو مـــن المعـــاني المحببة إلى الشعراء ، وفي الشعر الجاهلي اختلفت نظرة الشـــعراء أمـــام التعبير عن عواطفهم فمنهم من سما بها ، وكثير منهم شغل نفسه بـــالحديث عن أوصاف المرأة الحسية والتي لا تجد النفس فيها سعادة كسعادتها بسماع أحاديث الخواطر الوجدانية !

أما في الإسلام فقد غلبت روح الإسلام على أغراض الشعر ومنها الغزل ، وقد اختلف النقاد حول حال الغزل في صدر الإسلام فمنهم من قـــال : إن غلبة الإسلام على الناس جعلت الناس ينشغلون به بين معـــارض ومؤيد ، ومن ثم ضعف الشعر بعامة وبالتالي ضعف الغزل ، أضف إلـــي ذلك أن الإسلام قد صان المرآة من العبث وحماها من تلاعب الشعراء بمفاتنهـــا . ويري أن الغزل لا يوجد إلا حيث يوجد الداعي إليه وهو الراحة والطمأنينة والرغبة من القارئين والسامعين ورضا الحاكم وتشجيعه وهذه عوامـــل لم تكن متوافرة في صدر الإسلام وإذا ما وجد من غزل فهو صناعي لا يعدو ذلك إلي أنواع الغزل الأخرى .

وفي مقابل ذلك نجد من النقاد من يري أن عاطفة المرآة لم تتغير بمجـــــرد ظهور الإسلام وإذعان العرب له . وإنما ظلت العاطفة قوية مشبوبة وظـــل الشاعر العربي يتغزل في المرآة كما كان في الجاهلية غير أن الإسلام نـــهي عن الفحش في القول والتصريح بالفجور في ذكر الشاعر لمفـــاتن المـــرآة

والإشادة بالفسق وما إلي ذلك مما كان يصنعه شعراء الجاهلية في غزلـهم[1]
ولا تغيب عنا هنا قصيدة كعب بن زهير في اعتذار للرسول والتـي بدأهـا بالغزل ، فقال :

بانت سعاد فقلبـي اليـوم متبـ ـول   متيـم إثرهـا لـم يفـد مكبـول
أمست سـعاد بـأرض لا يبلغـ ـها   إلا العتـاق النجيبـات المراسـ ـيل
ولـم يبلغهـا إلا عـذافـرة   فيها علي الأين إرقـال وتبغيل [2]

- **الرثـاء** : هو إبداء الحزن والتفجع علي الميت وفراقـه ، وبـث لوعة القلب وحرقته ، ودرجات التفجع علي الميت ترتبط ارتباطـاً وثيقـاً بمدي العلاقة بين الشاعر والمرثي مما أدي إلي تنوع في شعر الرثاء تنوعاً أمكن حصره في ثلاث درجات هي : الندب ، والتـأبين ، والعـزاء . أمـا **الندب** فهو: التفجع علي من مات من الأهل والأقـارب والأحبـة والبكـاء عليهم ، أما **التأبين** فهو : الثناء علي الميت وذكر مناقبه وتعـداد فضائلـه وإظهار محامده ، وأما **العزاء** فهو : دعوة إلي التصبر والتجلد أمام أحـداث الدهر ونوائبه ، وتقلباته ومصائبه مع التفكير في حقيقـة الحيـاة والمـوت والانتهاء إلي أن الدنيا دار فراق وفناء لا خلود فيها ولا بقاء .

ولما جاء الإسلام تأثر فن الرثاء تأثراً عظيماً بتعاليمه فقد أبـت القيـم الإسلامية والتعاليم الحنيفية إن تبالغ الشعراء في التفجع والتحسر وإظـهار الجزع وشدة الألم (واستجابوا لقيمة التـي تفـرض علـي الجميـع روح الجماعة فلم يبكوا ميتاً لذاته ، وإنما يبكون فيه تأثر الأمة بفقده) [3] .

والناظر إلي الرثاء في صدر الإسلام يجد أنه تـأثر بمـا كـان بيـن المسلمين ومعسكر المشركين من تناحر وتحدي جعل الرثاء يتسـم بـالفخر

---

(1) أثر الإسلام في الشعر ص٩٠،٩٣ .

(2) عذافرة : شديدة غليظة ،الإين :الإعياء ،الإرقال:نوع من العدو ، التبغيـل : هـو تفعيل من البغل كأنه شبه سيرها بسير البغل لشدته .

(3) الأدب العربي بين البادية والحضر د/ ابراهيم عوضين ط /١ ص / ٢٨٣ .

حين يعدد الشاعر المناقب ويظهر الحزن علـــى مـــن مـــات شـــهيداً مـــن المسلمين، كما يتسم بإظهار الجزاء الأوفى الذي أعـــده الله للشـــهداء وقـــد وعدهم الله بقوله ? ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بـــل أحيـــاء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون ..? ومـــن هذا الرثاء قول حسان بن ثابت يرثي حمزة بن عبد المطلب وقد كانت ابنتـــه " أمامة " تسأل عن قبر أبيها و مصرعه والقصة كمـــا فـــي الديـــوان :أن " أمامة " لما قدمت المدينة مع رسول الله وكان قدم مكـــة هـــو وأصحابـــه فطاف بالكعبة وأقام بها ثلاثة أيام في عمرة الموادعة التي تـــزوج فيـــها " ميمونة بنت الحارث الهلالية "، فأخذ " أمامة " عليٌ بن أبي طالب كـــرم الله وجهه فدفعها إلي فاطمة صلوات الله عليها وقال دونك ابنة عمك .. فأخذتها فاطمة فانطلقت بها حتى إذا كانوا بمر الظهران ذكر لجعفر شـــأنها فـــأتي علي فسأله إياها وكانت خالتها تحته " أسماء بنت عميـــس" الخثعميـــة وأم أمامه " سلمي بنت عميس" ، وسأله إياها أيضاً: زيـــد بـــن حارثـــة بـــن شراحبيل الكلبي مولي رسول الله ﷺ فأتوا النبي ﷺ يختصمـــون فيـــها ، فقال : أما أنت يا جعفر فأشبهت خلقي وخلقي ، وأما أنت يا علـــي فـــأنت مني وأنا منك وأما أنت يا زيد فأنت مولاي ومولاهما ادفعاها إلـــى جعفـــر فإنه أوسعكم لها، فدفعها علي بن أبي طالب إلى جعفر فلم تزل عنده حتـــى قتل ، فأوصى بها جعفر إلى أخيه علي بن أبي طالب فمكثت عنـــد علـــي حتى بلغت ، فعرضها على رسول الله ﷺ أن يتزوجها فقال : هـــي بنـــت أخي في الرضاعة ، وبنات الأخ من الرضاعة لا آمـــر بنكاحـــهن ولســـت بمعاقب من نكحهن وهذا قبل تحريم بنات الأخ ، فأنا نـــاه عنـــهن نفســـي وولدي ، وطفقت أمامة تسأل عن أبيها وعن مصرعه فبلغ ذلـــك حســـان ، فقال :[1]

تسائل عن قوم هجان سَمَيْـــدع ... لدى البأس مغوارِ الصباح جسورِ

---

[1] الديوان ص ٢١٨ ــ ٢١٩

أخي ثقةٍ يهتز للعُرْفِ والنـــَّـدى ... بعيد المدى في النائبات صبــورِ
فقلت لها إن الشـــهادة راحـــــةُ ... ورضوان ربٍ يا أُمــامَ غفــورِ
فإن أباك الخير حمزة فاعلــمي ... وزير رسولِ الله خيرُ وزيـــــرِ
دعاه إلى الحق ذو العرش دعوةً ... إلى جنةٍ يرضى بها وســـرورِ
فذلك ما كنا نرجّي ونرتجـــي ... لحمزةَ يوم الحشر خير مصيــرِ
فوالله لا أنساك ما هبت الصَّبَــا ... ولأبكينْ في محضري ومسيري

ومن جميل المراثي : دالية حسان والتي بكى فيها رسول الله بقوله: [1]

بطيبةَ رسمٌ للرسول ومعهـــــدُ ... منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتهمـدُ[2]
ولا تمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصعد
وواضح آثارٍ وباقـي معالــم ... وربعٌ له فيه مصلًى ومسجد[3]
بها حجرات كان ينزل وسْطهــا ... من الله نــور يستضاء ويوقــد
معارف لم تطمس على العهد آيُها ... أتاها البـلى فالآي منها تجــددُ
عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبراً بها واراه في الترب ملْحدُ[4]
فبوركت يا قبرَ الرسول وبوركت ... بلاد ثوى فيها الرشيد المُســدد
وبورك لحد منــك ضمِّن طيِّبا ... عليه بناءٌ من صفيح مُنضَّــد [5]
تــهيل عليــه الترب أيدٍ وأعينٌ ... عليه وقد غارت بذلك أســــعد
لقد غيــَّبوا حلما وعلماً ورحمةً ... عشية عَــلَّــوه الثرى لا يُوســَّد
يبكون من تبكي السماوات يومه ... ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد

ومن روائع ما رثي به النبي ﷺ رثاء الإمام علي ــ كرم الله وجهه ــ:[6]

---

(١) ديوان حسان ص ٣٧٧ .

(٢) طيبة علم على مدينة رسول الله وكانت تسمى يثرب ، والرسم ما بقي مــن آثــار الدار ، تعفو : تدرس وتتغير ، تهمد : تبلى

(٣) المعالم : جمع معلم وهو ما يعرف به الشيء .

(٤) الملحد : الذي يضع الميت في لحده

(٥) الصفيح : الحجارة العريضة ، والمنضد: الذي جُعل بعضه على بعض .

(٦) ديوانه : ط/ ٨ دار الكتاب العربي بيروت٢٠٠٢ ش د : يوسف فرحات ص٢٢

رزئنا رسول الله حقــــا فلــن نرى بذاك عديلا ما حيينــا من الــــــردى

وكنت لنا كالحصن من دون أهلــــه له معقل حرز حريز من العـــــدى

وكنا بمرآكم نــــرى النور والهــــدى صباحا مساء راح فيـــــنا أو اغتــدى

فياخير من ضم الجوانح والحــشــا ويا خير ميت ضمـــــه الترب والثــرى'

فقد نزلت بالمسلمين مصيـــبـــة كصدع الصفا لا صدع للشعب في الصفا

فلن يستقل الناس ما حــل فيهـــم ولن يــجبر العظم الذي منهم وهــــى

وفي كل وقت للصلاة يهيـــجهـــا بــلال ويدعــو باســمه كلما دعـــا

ويطلب أقــوام مواريث هـــالـــك وفيـــنا مواريث الـــنبوة والهـــدى

وقد تضمن ديوان الإمام علي رثاء آخر ، من ذلك قوله :[١]

ألا طرق الناعي بليــل فراعنـــي وأرقني لما استهــل مناديـــا [٢]

فقلت له لمـــا رأيت الـــذي أتـــى أغير رسول الله أصبحت ناعيـــا!

فوالله لا أنساك أحمــد مـــا مشــت بي العيس في أرض وجاوزت واديـــا[٣]

وكنت متى أهبط من الأرض تلعــة أجــد أثرا منه جديدا وعافيـــــا[٤]

جواد تشظى الخيل عنه كأنــمـــا يريــن به ليــثا عليهن ضاريـــا[٥]

من الأسد قد أحمى العرين مهابــة تفادى سباع الأرض منه تفــاديـــا

أتتك رسول الله خيــل مغيـــــرة تثير غبارا كالضبابة كابيـــــا[٦]

---

(١) ديوانه : ط/ ٨ دار الكتاب العربي بيروت٢٠٠٢ ش د . يوسف فرحات ص/١٢٦

(٢) وصل الناعي: من أتي بخبر الموت . ليلا فأخافني ولم أعد أقـــوى علـــى النـــوم بعدما استهل: أي بدأ ينادي ويذيع النعي أي: خبر الموت

(٣) فوالله لن أنساك أيها الرسول ما دامت النوق تحملني فـــي الأرض وتجتــاز بيـــن الأودية والعيس بالكسر الإبل البيض التي يخالط بياضها شيء من الشـــقرة واحدهـــا أعيس والأنثى عيساء .

(٤) في كل تلعة من الأرض أجد أثرأ منك وحيوية تركتها .

(٥) هو جواد شجاع تفر من أمامه سائر الخيل كأنها رأت أسدا ضاريا حل بينها

(٦) كابيا : مغطى ، والمعنى : يا رسول الله أتتك خيلاً تثير غبارا كالضبــاب يغطـــي الأجواء ، وهي جاهزة لتأتمر بك .

إليك رسولَ الله صفٌ مُــقــدَّم إذا كان ضرب الهــام نفْقاً تفانيــا[1]

و الجدير بالذكر أنَّ ما نُسب إلى الإمام من شعر اتخذ منحى دينياً وخلقيــاً ولذلك شاع على الألسنة في ميادين الوعظ والإرشاد وهو في مجمله خــالي من التعقيد اللفظي ،كما نلاحظ غلبة الحس الديني على سائر الفنـــون فـــي صدر الإسلام مقتبسة ما جاء به النبي من وعد ووعيــد وإرشــاد وتــهديد بالعذاب أو إيثار ما عند الله في الدار الباقية على الدنيا الفانية !

كما لاحظنا أن الشعراء كادت تهجر الأغراض الجاهلية التي تتعارض مــع روح الإسلام من غزل فاحش أو هجاء بــالأعراض أو تفــاخر بالســطو والبغي أو وصفٍ للصيد ..

شعر الفتوحات الإسلامية:

كان العرب ينظمون أناشيد حماسية يتغنون بها بانتصاراتهم قديما فلما كــان الإسلام ظل دور الشعر واضحاً في الدفاع عن الدين عون رسول الله ، وقد **مرَّ الشعر في صدر الإسلام بمرحلتين كبيرتين :**

الأولى : داخل الجزيرة وتدرَّج أيضاً كالتالي :

(أ) مرحلة الاستمتاع والتلذذ وهذا قبل الإسلام

(ب) مرحلة الدفاع عن النبي ﷺ

(جـ) مرحلة الوعظ والتوجه جنبا إلى جنب مع خطابة الرسول والخلفاء

المرحلة الأخرى : خارج الجزيرة وتمثل دورة في حروب المرتدين عـــن الإسلام مانعي الزكاة في عهد أبى بكر، والفتوحات

(أ) حروب الردة : فإذا كانت معركة الشرك في عهد الرسول قد خلَّفـــت ملحمة شعرية كبيرة متمثلة في نتائج شعراء الدعوة فإن معركة الرِّدة هـــي الأخرى قد خلفت أشعاراً كثيرة تعبيراً عن وجهة نظر هؤلاء ما نعي الزكاة ، وبعضها الآخر كان إنذاراً وتخويفاً ووعظاً من جانب المسلمين فمن شــعر المرتدين قول الحطيئة :

(١) إليك أيها الرسول نقدم الصفوف لنضرب رؤوس الأعداء .

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بـــكر

أيورثها بكرا إذا مات بعـــده فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

ومن شعراء المسلمين " أوس بن بجير الطائى" ، يقول هاتفا محاربا: (١)

وليت أبا بكر يرى من سيوفنا وما نختلى من أذرع ورقـــاب

ألم تر أن اللـــه لا رب غيره يصب على الكفار سوط عذاب

وكان رد أبى بكر على هؤلاء المرتدين بقوله المأثور :

والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه على عهد رسول الله لقاتلتهم عليه، ثم أمر بتجهيز الجيوش بقيادة خالد بن الوليد لقتال هؤلاء المرتدين في قبيلـة بنى أسد وغطفان واليمامة والبحرين وحضرموت وبخران واليمن .

(ب) وفي عهد عمر اتسعت الفتوحات ، وقد أمر بعزل خالد بن الوليد عـــن إمارة الجيوش في الشام وولى أبا عبيدة بن الجراح مكانه وظل خالد يعاونـه في فتح في فتوح الشام ، وانطلق عمرو بن العاص لفتح مصر وقـــد أمـــد عمر بن الخطاب " المثنى بن حارثة " بجنود يقودها أبـــو عبيـــدة الثقفـــي لفتوحات الشرق . وكان عمر ينهي من لهم آباء شـــيوخ يعولونـــهم عـــن الهجرة برا بهم ، ويروى أن المخبل السعدي جزع جزعا شديدا حين هـاجر ابنه شيبان لحرب الفرس مع سعد بن أبى وقاص ، وكان قد أسن وضعـــف ، فافتقد ابنه فلم يملك الصبر عنه ، ومضى إلى عمر فأنشده أبياتـــا يقـــول فيها :

إذا قال صحبي يا ربيع ألا تـــرى؟ أرى الشخص كالشخصين وهو قريب

ويخبرنـــي شيبـــان أن لـــن يعقنى تعـــق إذا فـــارقتنـــى وتحـــوب(٢)

فرق له عمر ، وكتب إلى سعد يأمره برد شيبان إلى أبيه فرده إليه ، ولـــم يزل عنده حتى مات (٣) وليس المخبل وحده الذي فزع إليه يشكو هجرة ابنه

---

(١) الإصابة صـــ ٢/٥٥ ، وتختلي : تقطع

(٢) تحوب : تأثم

(٣) الأغانى (طبعة دار الكتب) ١٩٠/١٣ .

فقد فزع إليه أيضا أمية بن حرثان بن الأسكر حين هاجر ابنه كلاب إلى حرب الفرس ، وكان مما أنشده فيه :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله إن حفظ الكتابا[1]
إذا هتفت حمامة بطن وج على بيضاتها ذكرا كلابا
تركت أباك مرعشة يداه وأمك ما تسيغ لها شرابا

فأمر بإشخاصه إليه [2] وممن فزع إلى عمر في ذلك أبو خراش الهذلي لما هاجر ابنه مع المجاهدين إلى الشام ، وقد أنشده شعرا مؤثرا فأمر برده عليه ، وأن لا يغزو من له أب هرم إلا بعد أن يأذن له راضيا بهجرته [3] ولعل في هذه كله ما يصور كيف كان يترامى شباب العرب على الجهاد في سبيل الله ، ومع هذا يأبى المستشرقون إلا أن يجعلوا تلك الفتوحات الرائعة ابتغاء الدنيا والغنائم ، لا ابتغاء الله وثواب الآخرة ، وربما كان في خير ما يرد عليهم قول النابغة الجعدي لامرأته ، وقد أظهرت تأثرها لهجرته في فتوح فارس ، قال:

يا ابنة عمى كتاب الله أخرجني طوعا وهل أمنعن الله ما فعلا
فإن رجعت فرب الناس يرجعني وإن لحقت بربي فابتغي بدلا
ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعا من ضنى لم يستطع حولا

وظل دور الشعر بارزا مرافقا جهاد المسلمين وأحداثهم فصور مقتل عمر ثم صور عهد الخلفاء من بعده أتم تمثيل . ومن الصعب أن نعرض كل ما نظموه في مواقعهم المختلفة إنما نلم بطرف منه ، ولنقف قليلا عند موقعة واحدة في الشرق هي القادسية ، وفيها يلمع اسم أبى محجن الثقفي وكان مولعا بالخمر فحبسه سعد بن أبي وقاص ، حتى إذا احتدمت المعركة توسل

---

(١) يقصد ما في كتاب الله من رعاية الآباء والبر بهم .

(٢) راجع العصر الإسلامي د. شوقي ضيف ص٥٦ ــ ٥٧ وابن سلام ص ١٦٠ والخزانة ٢/٥٠٥ .

(٣) أغاني (ساسي) ٢١/ ٦٩ وديوان الهذليين ٢/١٧٠.

إلى سلمى زوج سعد أن تطلقه – على أن يعود إلى قيده – ليسهم في شرف المعركة ، فأطلقته وأبلى فيها بلاءً حسنا وعاد إلى سجنه ، وهو ينشد :

لقد علمت ثقيف غيــر فخر   بأنــا نحــــن أكرمهـم سيوفا
فإن أحبس فقد عرفوا بــلائي   وإن أطلق أجَـرّعُهم حتــوفـا

وكان حول أبى محجن فرسان كثيرون قصفوا الفرس وأطــاحوا بــرؤوس أبطالهم وهو يتصايحون بالشعر الحماسي منهم عمرو بـــن معــد يكــرب الزبيدي وكان من أبطال الجاهلية وفرسانها وكانت له آثار مشهورة شـــفي القادسية و اليرموك و نهاوند ومن شعره:

والقادسية حين زاحـم رستمٌ   كنــا الحماة بهــن كالأشطــان
الضاربين بكــل أبيض مِخْذَمٍ   والطــاعنين مجــامع الأضغان

ومنهم بشر بن أبى ربيعة الخشعمى ، وهو يصوّر بلاءه وبلاء قومـــه فـــي مواقع القادسية ، فيقول :

تذكر – هداك الله – وقع سيوفنا   ببـــاب قــديس والمكر عسير
عشية ود القوم لو أن بعضهـم   يعــار جناحـي طائــر فيطيــر
إذا ما فرغنا من قراع كتيبـــة   دلفنا لأخرى كالجبـــال تسيــر
ترى القوم فيها واجمين كأنَّـهم   جمال بأجمــال لــهنَّ زفيـــر

وممن له بلاء حسن في القادسية " قيس بن المكشوح " المرادي ابن أخـــت عمرو بن معد يكرب ، وهو الذي قتل رستم قائد الفرس في تلك المعـــارك وهو يصور ذلك :

جلبت الخيل من صنعاء تَرْدي   بكــل مـدجج كالليــث سامـي
إلى وادى القرى فديار كلبٍ   إلـــى اليرمــوك فالبلــد الشآمي
وجئن القادسية بعـــد شهرٍ   مسمومـــة ، دوابُرهــا دوامـــي
فناهضنا هنالك جمع كسرى   وأبنــــاء المــرازبـــة الكــرام
فلما أن رأيت الخيل جـــالت   قصـــدت لمــوقف الملك الهمام

فأضرب رأسه فهوى صريعا بسيف لا أفلّ ولا كهـــــام

وقد أبلـــى الإله هناك خيراً وفعل الخـير عنـد الله نامي

وممن حضر القادسية الأسود بن قُطبة ، و له فها أشعار كثيرة ، وعمـــرو بن شأس الأسدي ، وكان كثير الشعر في الجاهلية والإسلام ، وله يذكر قتل رستم :

قتلنا رُستماً وبنيــــه قسـراً تثيـر الخيـل فوقهـم الهيـالا[1]

وفرّ الهرمزان ولـم يحـامي وكان علـى كتيبتـه وبـالا[2]

وشهد القادسية أيضا عروة بن زيد الخيل وربيعة بن مقروم الضَّبِّـي وقـد ختم الجاحظ كتابه الحيوان بأبيات له يذكر فيها بلاءه يقول فيها : [3]

وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضهـا كالأعبـل

متسربلي حلق الحديـد كأنهم جُـرب مقارفـةٌ عَنيّـةُ مهمـل[4]

خصائص شعر الفتوحات

١- أولها الرثاء الجماعي للمجاهدين في المغازي عامة على نحو ما تجـد عند زياد بن حنظلة في وصفه لمغازلي الشام لعهد عمر

٢- وقد طبعت بطابع الآداب الشعبية سواء من حيث نسيجها العام أو مـن حيث قائلوها ومن نسبت إليهم أما من حيث النسيج فهي لم تبلغ من المتانـة مبلغ الأشعار التي نسبت إلى الشعراء المجودين في العصر نفسه

٣- وهي تشبه الأمثال التي يبدعها الشعب فناظمها لا يعرف كما لا يعـرف مرسل المثل لأنه من أبناء الشعب وأبناء الشعب قلما ذكروا لأنهم لا يعنيـهم أن يذكروا أو يمجدوا فهم آخر من يهتم بهذا الفضل .

---

(١) الهيال : ما ينهال من الغبار .

(٢) الهرمزان الكبير من حكام الفرس .

(٣) رَاجع شوقى ضيف صـ ٦٢ - ٦٤ .

(٤) البيض : الخوذ . الأعبل : حجر أبيض وفى البيت الأخير يشبه الفرس بإبل جربـاء مقارفة: من القراف وهو داء يقتل البعير . العنية :طلاء للجـــرب وأراد نفـس الإبـل الجربى . والمهمل: الذى يهمل الإبل فى المرعى .

٤- ويتسم هذا الشعر بالإيجاز ، فهو شعر اللمحات السريعة والمواقف الخاطفة وجمهوره لذلك مقطوعات قصيرة يجرى فيها الشعر على سجيته دون تدقيق في معنى أو تنقيح للفظ أو التماس اللفظ

٥- ويشيع فيها البساطة وعدم التكلف مم يعترض صاحبه من شواغل الجهاد التي تحول بينه وبين إطالة الفكرة .

وكانت الفتوحات مجالا للخيال القصصي ومادة للأدباء من بعدهم يزيدون عليها بما يشاءون أو يملى عليهم خيالهم .

والرافعي يجعل الفتوحات الخارجية سببا في ضعف الشعر " ولما جاء الإسلام واندفع به العرب إلى الفتوح واشتغلوا بالشعر عن الجهاد والغزو حينا من الزمن ؟ فلما راجعوا روايته بعد ذلك وقد أخذ منهم السيف والحيف وذهب كثير من الشعر ، وتاريخ الوقائع بذهاب رواته — صنعت القبائل الأشعار ونسبتها إلى غيرها [١] .

ولقد أثر عن عمر بن الخطاب قوله : " كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يصلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره "[٢]

والدكتور شوقي ضيف يقول بضعف الشعر في مكة على وجه الخصوص في عصر الخلافة الراشدة بخاصة بعد فتح مكة وخمود الحرب بين مكة والمدينة وذهاب المؤجج الأول للشعر في تلك الفترة : ولعل في ذلك ما يوضح كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح فلم تعد البلدة الأولى في

---

(١) راجع الحياة الأدبية في مكة في القرن الأول الهجري في ق ١ الجزء الأول من الجاهلي حتى صدر الإسلام د/ زكي عابدين غريب ص٤٣٣ـ٤٤٩ وتاريخ الشعر العربي - نجيب البهبتى ص ١١٣ .

(٢) راجع شعر الحرب في العصر الجاهلي - دكتور على الجندي ص ١٣٥ .

الحجاز بل سبقتها ونافستها المدينة وقد أصبحت تابعة لها . وولـــى عليـــها رسول الله ﷺ "عتاب بن أسيد " واستمر عليها في عهد أبى بكر وولّى عليها عمر ولاة مختلفين أهمهم نافع بن عبد الحارث الخزاعي . أما عثمان فولّـى عليها خالد بن العاص بن هشام ثم ولاة آخرين ولما خلفه على ولّى عليـــها قثم بن العباس بن عبد المطلب [1]

إن جمهرة الباحثين تميل أراؤهم إلى القول بضعف الشـــعر فـــي عصـــر الخلافة الراشدة بصفة عامة وفى مكة بصفة خاصة للأسباب التي ذكروهـــا حين قدموا أراءهم .

إن حادثة من الأحداث ليست بذي خطر على الإسلام في مظهرها ولكنـــها فى جوهرها خطيرة يستطيع الشعراء أن يتخذوها سبباً في نشـــر مـــا فـــي الإسلام من مبادئ ألا وهى قصة جبلة بن الأيهم . تلك القصة التي كـــانت أحداثها في مكة والتي تدور حول معنى المساواة في الإســـلام . ويتناولـــها أحد الباحثين بقوله : ولجبلة بن الأيهم قصة معروفة مع عمر بن الخطـــاب حينما أسلم وجاء إلى مكة حاجاً ثم اعتدى بالضرب على أحـــد المســـلمين أثناء الطواف فأراد عمر أن يقتص منه لكنه اعترض على عمـــر بقولـــه " كيف تسوى بيننا وأنا ملك وهو سوقي ، فقال عمر: الإسلام سوى بينكمـــا . فما كان من جبلة إلا أن طلب من عمر أن يمهله حتى الغد ، فلما جنّ الليـــل فرّ من مكة واتجه صوب بلاد الروم حيث تنصر هناك ثم حنّ إلى الإســـلام وندم على هربه ، وقال في ذلك أبياتاً طويلة منها :

تنصرت الأملاك من خوف لطمة   وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفنى منها لجـــاج ونخـــوة   وبعت لها العين الصحيحة بالعور

فياليت أمي لـــم تلدنـــي وليتني   رجعت إلى القول الذي قال عمر [2]

---

(١) الشعر والغناء في المدينة ومكة – دكتور شوقي ضيف ص ٢٢٥ .

(٢) الأدب في موكب الحضارة الإسلامية " كتاب الشعر " دكتور مصطفـــى الســـكعة ص ٤٠ .

إن تلك الأبيات الشعرية القليلة تؤكد تمسك العرب بعصنبيتهم حتى بعد الإسلام فلو قرأ جبلة قوله تعالى " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين " ما لطم المكي وقد يكون قرأها وحفظها ولكن شتان بين أن يعرف جبلة الإسلام وبين أن يتخذه سلوكا . وإن أول شيء حاربه الإسلام هو نخوة الجاهلية و التعاظم بالآباء والأنساب والأموال والأولاد ، إن عودة جبلة إلى رشده وندمه على فعله من أقوى الدلائل على أن الرجل قد تشربت روحه مبادئ الإسلام ، لولا تلك النعرات التي تمكنت من نفوسهم . ويمكن القول إن تلك النعرات موجودة حتى عصرنا هذا . رغم مرور الزمن الطويل على مبادئ الإسلام .

والحدث الثاني شاركت فيه مكة مشاركة فعلية خروج السيدة عائشة أم المؤمنين من مكة إلى العراق على رأس المعارضة لعلى رضى الله عنه . وقد قيلت أشعار في ذلك .

تناول الشيخ النجار تلك المسيرة فأورد " أقبل جاريه بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان لأهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضه للسلاح . إنه كان لك من الله ستر وحرمة فتهتكت سترك وأبحت حرمتك . إنه من رأى قتالك فإنه يرى قتلك . إن كنت خرجت طائعة فأرجعي إلى منزلك . وإن كنت أتيتها مستكرهة فاستعيني بالناس .

وخرج شباب من بنى سعد إلى طلحة والزبير فقال : أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا: لا قال فما أنا منكما في شيء ، فقال :

صنتم حلائلكم وقدمتم أمكم	هذا لعمرى قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها	فهوت تشق البيد بالإيجاف
عرضا يقاتل دونها أبناؤها	بالنبل والخطى والأسياف
هتكت بطلحة والزير ستورها	هذا المخبر عنهم والكافى

الباب الثاني

العصر الأموي

الفصل الأول

الحالة السياسية

كان البيتان الهاشمي والأموي أرفع بيوتات قريش وكان التنافس علـــى أشده بينهما في الجاهلية ، فكانت الرياسة الدينية في يد الهاشميين وكـــانت الرياسة المالية والتجارية في يد الأمويين ، فلما بعث محمد ﷺ ارتفع قـدر البيت الهاشمي وسما شأنه .. ومرت عجلة الزمان حتىطعن أمير المؤمنيـن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فرشّح لتولي شئون الحكم من بعـــده علياً وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبـــد الرحمـــن بـــن عوف، ولم يكن يشك في أن الخلافة سوف لا تعدو أحد الرجلين علي بـــن أبي طالب زعيم الهاشميين وعثمان بن عفان زعيم الأمويين ، وقـــد كـــان الأمر كما توقَّع فقد انحصرت فيها بعد تنازل عبد الرحمن عن حقـــه فـــي الخلافة وبعد تنازل مَن بقي من الأعضاء لكل من علـــي وعثمـــان ، وتـــمّ الأمر لعثمان ، وكان طبيعياً أن يستبشر الأمويون باســـتخلاف عثمـــان ، ويعتبرون ذلك كسباً لهم من جهة وانتصار علي البيت الهاشمي من جهـــة اخرى ، وهذا هو ما كان ، فقد التفّ القوم حول عثمان ، واستغلُّوا وداعتـــه ودماثته وبِرَّه بأهله وأقاربه واستطاعوا أن يتولوا أزمة الولايات الهامة فـــي الدولة ، فكانت الكوفة في يد الوليد بن عقبة ثم في يد ســـعيد مـــن بعـــده ، وكانت البصرة في يد عبد الله بن عامر ، وكانت مصر في يد عبد الله بـــن سعد بن أبي السرح وفاز معاوية بنصيب الأسد فقد أبقاه الخليفة علـــي مـــا تحت يده وضمَّ إليه حمص والأردن فاجتمعت له أجنـــاد الشـــام الأربعـــة واستاء بعض المسلمين لاستئثار الأمويين بالمناصب واستبدادهم دون غيرهم بالولايات وراحوا ينقدون سياسة الخليفة عثمان في ذلك وفي أمور أخـــرى وانتهز أعداء الإسلام والمتربصون بأهله هذه الفرصـــة فطفقـــوا يطلقـــون الإذاعات ويبثُّـــون الشائعات ويرمون عثمان بما هو منه برىء حتي تجـــرَّأ عليه الثائرون من الكوفة والبصرة ومصر ، وما زالوا به حتي قتلوه فـــي البلد الحرام والشهر الحرام وهو صائم يقرأ القـــرآن . ومـــع أن علياً ــ رضي الله عنه ــ قد وقف إلي جانبه يجادل عنه ومع أنه قد أرسل ولديـــه

الحسن والحسين لنصرته ، والقتال بين يديه إذا لزم الأمر فإن الامويين قـد اتهموا علياً والبيت الهاشمي معه بالمشاركة في قتل عثمان أو التقصير في نصرته علي الأقل ورفضوا أن يبايعوه وفرُّوا إلي مكة ، وهناك دعوا الـي الثورة عليه ونفخوا في جمرها حتي كانت معركة الجمل التي انتهت بقتـل طلحة والزبير وأسر أم المؤمنين عائشة رضـي الله عنـها ، ولـم يقـف الأمويون عند هذا الحد ، وإنما تصدَّي معاوية في الشام لمعارضـة علـي فرفض بيعته ، وطالبه بتسليم قتلة عثمان ، وإرجاع الأمر إلـي المسـلمين ليستخلفوا عليهم من يشاءون ، ولم يكن علي ليقبل هذا الـرأي فـإن قتلـة عثمان لم يكونوا في قبضته حتي يسلمهم إلي معاوية ، ولم تكن بيعتـه قـد تمَّت من غير رضاً من المسلمين ولا إجماع من الأنصار والمهاجرين حتي يتنازل عنها . من أجل هذا كانت الحرب بين علي ومعاوية أمـراً لا مفـرَّ منها ، وقد اشتعلت بينهما في معركة صفين التي انتهت بمهزلـة التحكيـم والذي لم يكن لها نتيجة سوي الانقسام في جنود علي وظـهور الخـوارج الذين كانوا شوكة في جنبه وجنب الدولتين الأموية والعباسية ولأن التحكيـم لم يقم علي أسس محدده ومدروسة ، فقد كانت نهايته مرفوضـة ، وعـاد النزاع بينهما إلي مثل ما كان عليه بيد أن الأجل لم يمهل علياً فقد اغتالـه عبد الرحمن بن ملجم ووضع بسيفه حداً لمتاعبه وآلامه ، ثم جاء من بعـد علي ولده الحسن الذي قلب الأمر علي وجهه وانتهي الـي التنـازل عـن الخلافة الي معاوية ، وذلك لأسباب أهمها :

١- هذا الفارق الشاسع بين الجبهتين العراقية والشامية ، فـالأولي كـانت منقسمة مفككة ، قد عضَّتها الحروب ونالت منها المعارك بينما كانت الثانيـة متحدة ومترابطة ، ولم يكن قد أصابها وهن فـي قتـال أو ضعـف فـي الحروب

٢- أن الحسن وأباه علي كانا مثالين يطلبان الدنيا من طريـق الآخـرة ، وكان معاوية واقعياً يطلب الدنيا من طريقها بوسائلها وذرائعها .

٣- أن الحسن قد جرَّب رجاله لما توجَّه بهم إلي قتال معاوية فنهبوا متاعــه وجرحوه في ساقه ، جراحه أشوته ومثل هؤلاء لا يمكن أن يهزم بهم عــدواً ولا أن يعتمد عليهم في تأسيس ملك .!

٤- وأخيراً فإن الحسن قد سمع حديثاً عن النبي ﷺ ينتعه فيـــه بــالخير ويذكر أن الله يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المؤمنين . من أجل هــذه الأسباب وغيرها تمَّ الصلح بينه وبين معاوية ، وقد كان علي شروط أهمــها أن يكون الأمر له بعد معاوية وألا يُساء إلي علي ، وألا يؤخذَ أحـــد مــن رجاله بالدّماء التي أريقت في الحروب التي كانت بينه وبين أبيـــه علــي ، وأن يعطي راتباً سنويا مقداره ألف ألف درهم ويعطي الحسين مثل ذلك وقد كتبت هذه الشروط في صحيفة ووفَّي ببعضها كل من الطرفين [١] .

هكذا بدأ العهد الأموى سنة ٤١ هـ على أثر مبايعـة الحسـن بـن علـى لمعاوية بن أبى سفيان بالخلافة فتمّ الصلح بين المسلمين وأخمــدت الفتنــة وتوقف القتال وسُمِّى هذا العام عام الجماعة وتحققت بشـــارة النبــي ﷺ بالصلح على يدي الحسن بن على ، حينما قال " إن ابنى هذا لسيد ، ولعــل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " .

خلفاء بني أميـــَّة وأهم أعمالهم : [٢]

معاوية بن أبى سفيان ٤١-٦٠هـ : هو أول خلفاء بني أمية ، أســـلم هو وأبوه وأمه هند بنت عتبة يوم فتح مكة سنة ٨ هـ ، ووردت أحـــاديث نبوية تشير إلى أنه سيتولى أمر المسلمين منها قوله ﷺ " يا معاويـــة إن ملكت فأحسن" وهذه إشارة نبوية إلى حُكمه . وكان معاويـــة مــن كتَّـاب الوحي فى عهد النبي ﷺ وشارك في الجهاد لفتح بلاد الشام فى عهد أبى

---

(١) راجع ملامح من تاريخ الدولتين المويه والعباسية د/ عبد المقصود نصار و د/ عبد العزيز غنيم ص٩-١٢ .

(٢) راجع البدية والنهاية لابن كثير ج/٤ ، ٥ ومقدمة ابن خلدون

بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وقد عيَّنه عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ على الشام واستمرَّ في ولايته حتى عام ٤١ هـ . وفى عهد الخليفة عثمان قاد معاويةُ أول معركة بحرية إسلامية ضد الروم في البحر المتوسط ، وهى معركة ذات الصواري سنة ٣٢ هـ .

وقد واصل معاوية بن أبى سفيان بعد خلافته : **الفتوحات الإسلامية** : ففى عهده نجح المهلب بن أبى صفرة فى فتح بلاد الشرق (السند ولا هور وبلخ)

وفى الشام جهَّز الخليفة معاوية سنة ٤٨ هـ جيشاً كبيراً لحصار القسطنطينية براً وبحراً بقيادة ابنه يزيد ، وكانت هذه المرة الأولى التى يحاصر بها الجيش الإسلامي القسطنطينية واشترك فى هذه الحملة بعض الصحابة وأبناؤهم ، واستشهد الصحابي الجليل " أبو أيوب الأنصاري " ودفن عند أسوار القسطنطينية ، واستحدث معاوية نظاما قتالياً جديداً لحماية حدود الدولة الإسلامية من الشمال أطلق عليه اسم " الصوائف والشواتى " حيث كانت الحملات العسكرية تخرج صيفا وشتاء لإرباك البيزنطيين ، وعدم منحهم الفرصة للهجوم . وفى الغرب : جهَّز معاوية سنة ٥٠هـ "عقبة بن نافع " بجيش كبير وتمَّ فتح أفريقية (تونس) وانتشر الإسلام فيها وتمَّ بناء مدينة القيروان لتكون قاعدة إدارية عسكرية للمسلمين .

واهتمَّ الخليفة معاوية ببناء أسطول بحري إسلامي كبير وأسس داراً لصناعة السفن في جزيرة الروضة في مصر ، كما قام معاوية ببعض التنظيمات الإدارية : كاستحداث ديوان الخاتم وديوان البريد وولاية العهد .

نظام الحكم : استحدث الخليفة معاوية نظاماً جديداً للحكم وهو ولاية العهد ؛ نظراً للظروف التي كانت تمرُّ بها الدولة الإسلامية ، وخشية حدوث فتنة جديدة ؛ ولهذا اجتهد الخليفة معاوية فى استحداث نظام جديد وهو ولاية العهد ، حيث رأى أن ابنه يزيد مؤهلاً لهذه الولاية ، وإن لم يكن الأفضل بين أقرانه ، إلا أنه حظي بتأييد الولاة والعمال ، وقادة الجند ، وزعماء

القبائل فى الشام ، فعيّنه ولياً للعهد من بعده ، وحرص أيضاً على تدريبه على القيادة . إذن: كانت ولاية العهد اجتهاداً من معاوية ، نظراً للظروف الاستثنائية التي تمرُّ بها الدولة ، ولكن الخطأ الذي ترتب على ذلك هو اعتماد الخلفاء الذين جاءوا من بعده نظام ولاية العهد أساساً في الخلافة بدلاً من الشورى .

خلافة يزيد بن معاوية : ٦٠ - ٦٤ هـ

تولى يزيد الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠ هـ ، وأخذ الولاة بيعة الناس له فى الأمصار فبايعوه جميعاً إلا الحسين بن على وعبد الله بن الزبير اللذين رفضا المبايعة ؛ ونظراً للأحداث الكبيرة التي حدثت في عهد يزيد ، فقد بالغت الروايات فى ذم يزيد ونسبت إليه أشياء كثيرة كشرب الخمر واللهو وكثرة الصيد ، وفتح المجال للوضع .

ومن أهم الأحداث المؤلمة التي حدثت في عهد يزيد بن معاوية هى حركة الحسين بن على في كربلاء سنة ٦٢ هـ حيث رفض الحسين وعبد الله بن الزبير مبايعة يزيد لقناعتهما بعدم كفاءته للخلافة ، وجاءت رسائل من أهل الكوفة إلى الحسين في المدينة تدعوه للخروج على يزيد تصحيحاً للوضع ، وعاهدوه على التضحية والنصرة ، فرأى نفسه ملزماً بالاستجابة لهذه الدعوة ، فأرسل ابن عمه " مسلم بن عقيل بن أبى طالب " لتقصىّ الأخبار فى الكوفة ، فالتقى بالناس ورأى اندفاعهم واستعدادهم للنصرة ، والتفَّ حوله ما يقرب من ثمانية عشر ألف من أهل الكوفة ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض الصحابة كعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وأبو سعيد الخدرى وجابر بن عبد الله نصحوا الحسين بعدم الخروج خوفاً عليه وأهله وحرصاً على وحدة الأمة ، ولكن الحسين — رضى الله عنه — أصرَّ على الخروج ، قائلاً " إنا قد عاهدنا القوم ، ولا بدَّ من الوفاء لهم " وتذكر الروايات أن معاوية بن أبى سفيان كان قد توقَّع خروج الحسين بن

علي على يزيد ، فقد ذكر ابن الأثير[1] وصية معاوية ابنه يزيد لما مرض مرض الموت ، قال له :

" يابني إني كفيتك الشدّ والترحال ، ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب ، وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، وإني لست أخاف عليك أن ينازعك في هذا الأمر إلا أربع نفر من قريش: الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن أبى بكر :

فأما ابن عمر: فإنه رجل قد وقذته العبادة ، فإذا لم يبقَ أحد غيره بايعك .

وأما الحسين بن على : فإنه رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يُخرجوه .. فإن هو فعلها فاصفح عنه " لقرابته من رسول الله ﷺ

وأما ابن أبى بكر: فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ، وليس همه إلا فى النساء واللهو. وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته فرصة وثب فذاك **ابن الزبير** ، فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إربا " .

فلما سمع يزيد بخروج الحسين كتب إلى عبد الله بن عباس يطلب إليه إقناع الحسين بعدم الخروج ، ولكن الحسين أصرَّ على موقفه وفاء بعهده مع أهل الكوفة . وقد بلغ يزيد أنَّ " النعمان بن بشير" والي الكوفة قد تهاون مع مسلم بن عقيل ومن معه من أهل الكوفة فعزله ، وولّى عبيد الله بن زياد ــ المعروف بشدته ــ ولاية الكوفة والبصرة ، وكُتب له أن يتصدى لحركة أهل الكوفة ويفرق الناس من حول الحسين ، ولم يأمره بقتل الحسين ، فدخل عبيد الله بن زياد الكوفة فقتل " مسلمَ بن عقيل " وتفرّق الناس من حوله وكان الحسين حينئذ قرب الكوفة ومعه ثمانون رجلا من أصحابه وأهل بيته وعلم بمصير مسلم بن عقيل ، كما علم بتخلّى أهل الكوفة عن نصرته ، فاقترح فاقترح الحسين على والى الكوفة ثلاثة أمور هى : السماح له بالعودة إلى مكة أوالسماح له بالذهاب إلى يزيد للتحاور معه فى دمشق أو السير للثغور للجهاد ولكن بعض أعوان عبيد الله بن زياد أشاروا

---

[1] الكامل فى التاريخ – ٣/ ٢٥٩ ، ٢٦٠

عليه بعدم الاستجابة لمطلب الحسين ، واقترحوا عليه أن يطلب من الحسين إما القتال أو الاستسلام ، وأن ذلك سوف يرفع مكانة الوالى عبيد الله ابـــن زياد عند الخليفة وينال رضاه فأخذ عبيد الله بهذه المشورة . فوجه عبيـد الله بن زياد جيشاً مكوناً من أربعة آلاف مقاتل بقيادة عمر بن سعد وشمر بـن ذى جوشن لقتال الحسين ومن معه فقاتلوا قتالا باسلاً حتـــى آخـر لحظــة فاستشهد الحسين بن على واثنين وسبعين من أصحابه وأهل بيته ، وبُعـــث من بقى من آهل البيت إلى الشام ، ولما وصل الوفد إلى الخليفـــة " يزيـد " اعترض على قتل الحسين بقوله : " لعن الله ابن مرجانة كنت أرضى مـــن طاعتكم من دون قتل الحسين ! أما والله لو كنت صاحبـــه لعفـوتُ عنـــه " وبكى بكاءً شدداً وأكرم أهل بيت الحسين ، وبعثهم إلـــى المدينـــة . ولقـد تركتْ هذه الحادثة المؤلمة فى نفوس المسلمين أثراً عظيماً حتى اليوم وإلـى أن يشاء الله .

فعلى أثر استشهاد الحسين كانت **موقعة الحرة سنة ٦٣ هـ فى المدينـــة** : حيث أظهر أهل المدينة عدم الرضا وطردوا والي المدينة وحاصروا بنـــى أمية فى المدينة فبلغ الخبر يزيد فغضب غضباً شديداً وسيَّر جيشـــاً كبـيراً لحصار المدينة بقيادة عقبة بن مسلم الذي حاصر المدينة أياماً عديدة وقتـــل عدداً من أهلها وتمكن عقبة بن مسلم من إعادة نفوذ الدولـــة الأمويـــة فـــى المدينة المنورة .

وبعد استشهاد الحسين أيضاً : قام عبد الله بن الزبير بحركته فى الحجـــاز ، إذ أعلن نفسه خليفة للمسلمين واستمرت حركته تسع سنوات (٦٤-٧٣هـــ) وكان له أنصار في خرسان واليمن والشام ومصر والحجاز واتخـــذ مكـــة مقراً له .[1] وتوجه جيش الخلافة بقيادة "عقبة بن مسلم " أيضاً من المدينـــة المنورة إلى مكة ، وتوفى عقبة ، فتولى حصين بن نمير ، فطلب من ابـــن الزبير الخروج إلى الشام لانتخابه خليفة فرفض ابن الزبير خوفاً من خذلان أهل الشام له ، فرجع الجيش بقيادة الحصين إلى الشام . ثم توفي يزيد بـــن

[1] راجع البداية والنهاية ج٤ ، ٥

معاوية ، فتولى الخلافة بعده ابنه معاوية بن يزيد الــذي عــرف بمعاويــة الثاني واستمرت خلافته ٤٠ يوماً ، ولم تكن لديه رغبة في الحكــم وكــان ضعيفاً فخطب الناس معلناً عزل نفسه وطلب إليهم اختيــار خليفــة لــهم ، فاختار أهل الشام مروان بن الحكم ، وبهذا انتقلت الخلافــة **مــن البيــت السفياني إلى المرواني** ، فأصبح مروان بن الحكم خليفة فــي الشــام ، وعبد الله بن الزبير في الحجاز .

خلافة مروان بن الحكم ٦٤ - ٦٥ هـ :

حظي مروان بن الحكم بتأييد أكثر أهل الشام وقد استطاع تثبيــت الخلافــة الأموية فى الشام حين تمكّن من القضاء على منافسه " الضحاك بن قيــس الفهرى " زعيم القيسية فى معركة (مرج راهط ٦٥ هـ) فبسط مــروان نفوذ دولته على الشام ومصر وأعطى ولاية العهد لابنيه عبد الملــك ومــن بعده عبد العزيز ، ويعد هذا تطوراً فى نظام ولاية العهد ،ثم تُوفي٦٥ هـ.

خلافة عبد الملك بن مروان ٦٥ هـ - ٨٦ هـ

تولى عبد الملك الخلافة ، وكانت الدولة الأموية تعانى مــن اضطرابــات شديدة إذ تعدد خصومها ، فالروم مــن الخــارج والحركــات المعارضــة والمنافسون من الداخل خاصة فى الشام والعراق والحجاز ، فــأراد عبــد الملك تثبيت نفوذ دولته ، فبدأ بمهادنة العدو التقليــدى للدولــة الإســلامية (الروم) وذلك لتحييده ، حتى يتفرغ لمواجهة خصومه في الداخل واحداً بعد الآخر(سياسة الانتظار حين اشتداد الصراع بين الخصوم) وقد تمكن عبــد الملك من بسط نفوذه على الشام . كما تمكن من القضاء على فرقة **التوابين** بالكوفة وهم جماعة أعلنوا حركتهم للتكفير عــن موقفــهم المتخــاذل مــع الحسين بن علي ، فاجتمعوا تحت قيادة سليمان بن صرد وأمر الخليفة عبــد الملك عامله على العراق عبيد الله بن زياد لمحاربة التوابين وتــمَّ القضــاء عليهمَ سنة ٦٥ هـ .

ثم ظهرت حركة المختار بن أبي عبيد الثقفى في العــراق ســنة ٦٦ هــ مستغلاً اضطراب أوضاع الدولة ، فحاول السيطرة علــى العــراق وكــان

متقلباً فى الولاء إذ اتصل بالحسين بن على ثم بعبيد الله بن الزبير ثم ادعى أنه أولى بالولاية من غيره ورفع شعار الثأر للحسين ، فالتقى بجيش الخلافة في العراق بقيادة عبيد الله بن زياد ، فانهزم جيش الخلافة وقتل عبيد الله بن زياد ، فرأى الخليفة عبد الملك أن من الأفضل التريث في مجابهة خصومه حتى يتنازع الخصوم ، إذ كان هناك خلاف بين عبد الله بن الزبير والمختار فأمر عبد الله أخاه مصعب ــ بعد أن ولاه العراق ــ بمقاتلة المختار ، وتمكن مصعب من القضاء على المختار وفرقته المختارية سنة ٦٧ هـ في معركة قرب الكوفة . حينذاك خرج الخليفة عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير فى العراق .فقاد الجيوش بنفسه لقتال مصعب بن الزبير في العراق وتمكن من القضاء على مصعب سنة ٧١هـ ، ولم يبق أمام عبد الملك سوى خصم عنيد قوى وهو عبد الله بن الزبير الذى أعلن الخلافة في مكه وكان تحت سيطرته الحجاز واليمن وخراسان فضلاً عن ثقله العسكري في العراق ، ثم اكتشف عبد الملك شخصية عسكرية قوية شديدة الولاء لبنى أمية وهو الحجاج بن يوسف الثقفي فكلفه بقيادة الجيوش لقتال عبد الله بن الزبير وبعد حصار لمكة تمكن الحجاج من قتل عبد الله بن الزبير سنة ٧٣ هـ وانتهت بذلك حركة عبد الله بن الزبير التى استمرت تسع سنوات (٦٥ - ٧٣ هـ) وتمكن فيها عبد الله من مد نفوذ دولته في كافة أقاليم الدولة الإسلامية بعد نجاحه في القضاء على خصومة وتمكنة من التغلب على كافة الصعوبات التي واجهت دولتة وثبت الحكم الأموي ؛ ولذلك يعد الخليفة عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الأموية .

وأراد الخليفة عبد الملك إظهار قوة المسلمين ودولتهم فأصدر العملة الإسلامية وأمر بوضع عبارة (شهد الله أنه لا إله إلا هو) على صحائف البردي المصدرة إلى الروم ، فاغتاظ ملك الروم ورأى ذلك تحدياً من الخليفة عبد الملك ، فأراد الضغط على المسلمين من خلال كتابة بعض

العبارات التي تسيء إلى النبي ﷺ على العملة الذهبية التي يصدرها الروم للدولة الإسلامية أى للضغط على الدولة الإسلامية سياسياً واقتصادياً وانتبه عبد الملك إلى ضرورة استقلال الدولة اقتصادياً فأمر بإصدار عملة إسلامية وترك العملة الرومية ، فأنشأ داراً لضرب النقود في الكوفة ودمشق ، وكتب على العملة في الوجه الأول (قل هو الله أحد) وعلى الوجه الثاني (لا إله إلا الله) واسم المدينة التي سك فيها النقد ، وعلى المحتسب (الذي يتولى وظيفة الحسبة) مراقبة دار الضرب ، وضبط وزن العملة والتجول فى الأسواق لمنع الناس من استخدام العملة المزوّرة .

واهتم عبد الملك أيضاً بالبريد وتنظيمه بشكل جيد لما يمثله من ربط أطراف الدولة وأقاليمها المترامية بمقر الدولة (دمشق) كما اهتم الخليفة عبد الملك بالعمران وبناء الطرق وبناء قبة الصخرة في القدس ، لتكون علامة للمسجد الأقصى .

ولثقة الخليفة في ولاء **الحجاج بن يوسف الثقفي** (٧٥ هـ - ٩٥ هـ) فقد ولاه العراق والمشرق ومنحه صلاحيات واسعة واستمر فى ولايته حتى وفاته ، وقد استطاع الحجاج تنشيط الفتوحات في المشرق إذ ولى اثنين من كبار قادته قيادة الفتوحات ، **الأول هو محمد بن القاسم الثقفي الذي استطاع الوصول إلى شمال الهند ، والآخر هو قتيبة بن مسلم الباهلي الذي نجح فى الوصول إلى حدود الصين وقدّم الحجاج للحملات المذكورة كافة أنواع الدعم . وقد حاول تطبيق سياسة الحزم ، وبالغ في استخدام القوة والقسوة مع خصومه ، فقتل على يديه بعض المسلمين منهم علماء أمثال** سعيد بن جبير ، ولابد أن نتعامل بحذر مع الروايات التي بالغت بعدد ضحاياه .

خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦ هـ)

تسلم الخلافة والدولة مستقرة غنية فالإنجازات التي شهدها عهده كانت نتيجة للزروع التي غرست فى عهد الخليفة عبد الملك وأثمرت في عهد

الوليد بن عبد الملك . وقد استمرت الفتوحات أيضاً وكـــانت علــى ثــلاث جبهات هي :

– في الشرق حيث كانت الجيوش الإسلامية تتقدم بقيادة قتيبـــة بـــن مســـلم الباهليّ ومحمد بن القاسم الثقفي. وفي الشمال بقيادة محمد بن مروان الـــذي كلف بفتح أرمينيا وما بعدها . وفي الغرب نجح موسى بن نصـــير والـــي إفريقية من إتمام فتح إفريقيا وبدأ طارق بن زياد بفتح الأندلس سنة ٩٢ هــ وتمكن بمساعدة موسى بن نصير من إتمام فتـــح الأندلـــس (أســـبانيا – البرتغال) في زمن قياسي (٩٢ –٩٥ هــ)

وكان الوليد بن عبد الملك محباً للعمران ، فشهده عـــهده: بنـــاء وتعمـــير المسجد النبوي ، والمسجد الأموي في دمشق وبناء المسجد الأقصى .

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦– ٩٩ هــ)

عرف الخليفة سليمان بكراهيته الشديدة للحجاج وعماله ، فـــأخذ بمشـــورة عمر ابن عبد العزيز ، فقام بعزل عمال الحجاج في المشرق الإســـلامي ، كما عني بمواصلة الفتوحات بالأندلس ، والقسطنطينية ، فجهّز جيشاً كبـــيراً لحصار القسطنطينية على أمل فتحها ، وقام الخليفة سليمان بتعيين عمر بـــن عبد العزيز ولياً للعهد ، وذلك بمشورة العالم رجاء بـــن حيـــوة . وتوفـــى سليمان سنة ٩٩ هــ والجيش مستمر فى حصاره للقسطنطينية .

خلافة عمر بن عبد العزيز ٩٩ – ١٠١ هــ

والده عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، كان وليّ العهد ، وواليأ على مصر فى عهد أخيه الخليفة عبد الملك ، ووالدة عمر ليلى بنت عاصم بن عمربـــن الخطاب ، (أمها بائعة اللبن في عهد عمر) وقد بشرَّ به الخليفة عمر بـــن الخطاب إذ رأى رؤيا فقال : من أحفادي أشجُ بني أمية يملأ الأرض عـــدلا.

درس عمر الفقه والعلم وعرف بعبادته وتقواه ، وكان فـــي شـــبابه مترفـــاً متنعماً وكان جريئا في الحق ، يعترض على الخليفة عبد الملك ، ولاســـيما

على أعمال الحجاج ، وكان عبد الملك يسمع مشورة عمـــر أحيانـــا ، أمـــا الخليفة الوليد فلم يكن يفتح صدره لانتقادات عمر ضـــد الحجـــاج ، فـــأراد الوليد أن يبعده عن دمشق فعيّنه والياً على المدينة (٨٧ – ٩٣ هـ) فقـــام بتوسيع المسجد النبوي واختار من بين فقهاء المدينة مجلساً للشورى وكـــان يستقبل الهاربين من الحجاج ، فاشتكى الحجاج للوليد فعزله الوليـــد عـــن المدينة ، فعاد عمر إلى دمشق ، فلما تولّى سليمان الخلافة أصبـــح عمـــر وزيراً له ، فأشار عليه بإصلاح الإدارة وعزل بعض الولاة الذيـــن عرفـــوا بشدتهم ، فلما انتقلت الخلافة لعمر بن عبد العزيز – بدأ بنفسه فترك حيـــاة الترف والنعيم فأصبح زاهداً توّاقاً للآخرة ، مشغولاً بالرعيـــة ، وكـــانت زوجته ابنة عمه فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت تعيش في أنـــواع الـــترف فخيَّرها عمر ــ رضي الله عنه ــ بالبقاء معه على شـــرط إعـــادة جميـــع أموالها ومجوهراتها إلى بيت مال المســـلمين ، فاختـــارت عمـــر ودفعـــت بأموالها إلى بيت المال .

كذلك فعل عمر مع أقرانه من بني أمية إذ طلب إليهم ردّ المظالم وإعـــادة كل ما أخذوه بغير حق ، وفتح الباب لمـــن كـــانت لـــه مظلمـــة أن يتقـــدم بالشكوى وجلس الخليفة بنفسه لردّ المظالم . وقد اختار ولاته وعماله علـــى شاكلته صالحين زهاداً وأمرهم بالاهتداء بسيرته ، وعرفوا بالحزم والقـــوة وقد أجزل لهم العطاء بما يحقق لهم الكفاية ؛ لذلك يعد كثير مـــن العلمـــاء عمربن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين .

ــ عُني عمر بالحفاظ على أموال المسلمين والحرص عليها وأمـــر النـــاس بردّ الأموال التي أخذوها دون حق إلى بيت المال – كما نظّم الفتوحـــات ، ورأى عمر أن جيش مسلمة بن عبد الملك الذي كان يحاصر القســـطنطينية يلحق به ضرر كبير لشدة البرد وقوة العدو وحصانة أسوار القســـطنطينية ، فأمر بسحب الجيش لإعادة تنظيمه وترتيب عملية الفتـــح ؛ ليكـــون فتحـــاً منظماً . وقد فتح عمر باب الحوار والمناظرة مع الحركات المناوئة للدولـــة

فهدأت حركات المعارضين في عهده واستقرت أوضـــاع الدولـــة . واهتـــم بإصلاح أحوال الموالى فخفف عنهم الضرائب ، كما ألغى الجزيـــة عمـــن أسلم من أهل الذمة ، وتعامل معهم بسماحة الإسلام .

- اهتم بالدعوة إلى الإسلام ، فبعث الدعاة إلى الأقاليم ، وأرســـل لملـــوك الشرق والغرب حتى الهند والسند والـــبربر ، واســـتجاب بعضـــهم لدعـــوة الإسلام فدخلوه أفواجا ، واشتكى بعض الولاة من انخفاض الجزية لكـــثرة الداخلين فى الإسلام فقال عمر (إن الله بعث محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا)

خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ)

تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة فعادت السياسة القديمة ، وظهرت بـــوادر الخلافات والفتن كحركة الخوارج ، وفتنة يزيد بن المهلب بن أبى صفـــرة ، إلا أن الفتوحات استمرت فى جبهة الأندلس

خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ)

وفى عهده : تجدد الصراع بين اليمنية والقيسية (التعصب القبلـــى) وهـــذا الصراع أضعف الدولة الأموية كثيراً . كما اشتدت حركة الـــبربر — فـــي شمال إفريقيا — التي استنزفت إمكانات الدولة بشـــرياً واقتصاديـــا ، كمـــا ظهرت فى الكوفة حركة زيد (زين العابدين) بن على بن الحسين ، وإليـــه يُنسب مذهب الزيدية الذي ينتشر في اليمن ثم قُتل زيد ســـنة ١٢٠ هـــ . واستمرت الفتوحات في جنوب فرنسا وحدثت معركة كبيرة وهى معركـــة بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقى ١١٤ هـ جنوب باريس ، وهـــى أبعد نقطة وصل إليها الفتح الأموي فى أوروبا ، واستشهد فـــي المعركـــة المذكورة عدد كبير من المسلمين ومنهم القائد عبد الرحمن بن الغافقى .

ثم تعاقب خلفاء بني أمية ، وبدت الدولة في ضعف ، فكان الوليد بن يزيـــد (١٢٥ - ١٢٦ هـ) ثم يزيد بن الوليد (١٢٦- ١٢٧ هـــ) ثـــم مـــروان الجعدي بن محمد (١٢٧ - ١٣٢هـ) وهو آخر خلفاء بنى أمية وفى عهده اشتدت الاضطرابات ، وازدادت قوة المعارضة خاصة الدعوة العباســـية ،

بقيادة عبد الله بن علي في معركة نهر الزاب سنة ١٣٢ هـ والتي استمرت سبعة أيام ، وفر مروان بن محمد ، فاحتاز عبد الله ما في معسكر مروان من أموال وأمتعة ، وكتب إلى عمه أبي العباس السفاح بذلك النصر وفرَّ مروان إلى دمشق ، ثم إلى الديار المصرية التي قتل فيها في ذي الحجة ١٣٢هـ ، وقد قيل في هربه : [1]

لجَّ الفرار بمروانٍ فقلت له : عاد الظلوم ظليماً همُّه الهرب

أين الفرار وترك الملك إذ ذهبت عنك الهوينا فلا دين ولا حسب

وانتهى بذلك عهد الدولة الأموية التي استمرت قرابة تسعين عاماً ، وتعلقب فيها أربعة عشر خليفة من الفرعين السفياني والمرواني من البيت الأموي .

* * * * * *

---

(١) راجع البداية والنهاية ج٧ط/ دار الفكر بيروت .

الفصل الثانى

الأحزاب السياسية وأثرها في الأدب

قلنا : إن العصر الأموي اتَّسم بالصراعات الحزبية ، والتي يرجع أساسـها إلى عهد عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ الذي استعان بأقاربـه مـن الأمويين ، واتخذ عمَّاله منهم وكان كاتبه وأمين سرّه "مروان بن الحكـم" الذي اتخذ من لين عثمان فرصة تخدم الأسرة الأموية أكـثر ممـا تخـدم المسلمين في كل المجالات ، وهذا ما أثار ثائرة المسلمين ، وكان عبـد الله بن سبأ اليهودي قد أسلم في عهد عثمان ، والراجح أنه أعلن إسلامه ليفسـد على المسلمين دينهم وحياتهم ، مستغلاً سـخط النـاس علـى تصرفـات الأمويين وراح يؤلب الناس على عثمان ، ويكوّن الجمعيات السرية لخلعه ، ويدعو لعلى – رضى الله عنه – ولقد رحل إلى مصـر ، فـاجتمع حولـه جموع من الناس وشاع فيهم أن عثمان أخذ الخلافة من " على" بغير حـق ، وأثار الناس على عثمان بما شاع من تصرفـات بعـض عمَّالـه ، الذيـن يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة .. إلى أن قامت الثورة ، وقـُتل عثمـان وبايع الناس علياً ، ولكن الأمويين استغلُّوا قتـل عثمـان فطـالبوا بدمـه لصالحهم ، وانقسم الناس إلى مؤيِّد لعلى وآخر لمعاويـة وثـالث محـايد ، فأصبح حزبان متصارعان العلويون والأمويون وبينهما المرجئة ، الذين لـم يريدوا الانغماس في الفتنة وأرجئوا أمر هؤلاء وأولئك إلى الله ، ولما قبل " على " التحكيم عارضه جماعة من حزبه وخرجوا عليه فسُموا الخوارج ، وتمضى الأحداث ويقتل "على" بيد الخوارج ، ويتنازل الحسن عن الخلافـة يصبح معاوية هو الخليفة ولم تتوقف الصراعات بتولي معاوية ، بل ظلـت كامنة حتى آن لها أن تتفجر بتولية يزيد بن معاويـة الحكـم ، فـأصبحت أحزاب كثيرة أهمها :

<u>أولا : الحزب الأموي الحاكم</u> : بزعامة معاوية ، وكان يقوم أساسـاً علـى أهل الشام الذين ناصروا الأمويين حتى استقرَّ لهم الحكم وكان أبـرز مـا يميِّز سياسية هذا الحزب هو التعصب للعرب على الموالـى ، والتعصـب لبنى أمية على بنى هاشم ! ولقد عرف الخلفاء والأمراء كيـف يُضرمـون

العداوات بين البطون والعشائر ، ويثيرون الأحقاد ، متخذين في ذلك شتى الوسائل لإضعاف خصومهم ، وقد أثار تعصبهم ضد الموالى حفيظة نفوسهم وجعلهم يحقدون على العرب ، ولقد بلغ من تعصب الأمويين أنهم لا يتزوجون من الموالى ، ولا يزوجون لهم حتى لا يختلط الدم العربي بغيره.!

وقد استحدث الخليفة معاوية نظاماً جديداً للحكم وهو ولاية العهد مخالفاً بذلك سنة الخلفاء السابقين ، مما دعا عبد الله بن همام السلولي أن يقول :

فإن تأتوا برملة أو بهند نبايعها أميرة مؤمنينا !

وقد التفّ حولهم كثير من الشعراء إما رغبة وإما رهبة كما كان من الكميت وكثير عزة وجرير والفرزدق والأخطل ، وربما يكون عن اقتناع كما فعل ابن قيس الرقيات ، باعتباره متعصباً للقرشيين ، ولقد تفاوت هؤلاء الشعراء في إخلاصهم لأفراد تلك الأسرة ، فهذا عدي بن الرقاع العاملي الذي أخلص للوليد بن عبد الملك فمدحه بحسن القيادة وبتعمير الأرض ، وبمحاربة المفسدين في الداخل والخارج ، فقال :

أو لا نرى أن البرية كلها	ألقت خزائمها إليه فقادها
ولقد أراد الله إذ ولاكها	من أمة إصلاحها ورشادها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت	وكففت عنها من يروم فسادها
وأصبت في أرض العدو مصيبة	عمت أقاصي غورها ونجادها
ظفرا وقصرا ما تناول مثله	أحد من الخلفاء كان أرادها [1]

ثانيا الحزب الشيعي : وقد عرف هذا الحزب على نحو واسع ـ كعقيدة ـ بعد مقتل الحسين ، وساد في الكوفة ـ عاصمة الخلافة في عهد على وفي العراق وخرسان ـ أن النبوة مُلك ينبغي أن يورث ، ولا يرثه إلا الأقربون وعلى وبنوه أقرب الناس وأحقهم بوراثته ، ورغم تنازل الحسن فإن الشيعة ظلوا يؤمنون بأن الخلافة يجب أن تكون في ذرية علي ، ولقد

[1] الأغانى جـ ١ / ٢٠٠

مكّن لهذه الفكرة عبد الله بن سبأ كما أشرنا ، كما ساعد على ذلـــك قســوة الأمويين على آل البيت وأنصارهم ، وقد وقف العلويون خلف علـــي فـــي حربه ضد طلحة والزبير في معركة الجمل ، وناصروه ضد معاويـــة فـــي معركة صفين ، فلما تولى يزيد الخلافة بعد معاوية وراثةً ، امتنع الحســـين عن مبايعته كما امتنع عبد الله بن الزبير وجماعة من المسلمين ، وأرســـل أهل الكوفة إلى الحسين يطلبون إليه أن يأتيهم وله عليهم النصرة ، فخـــرج الحسين في نحو ثمانين رجلا من آل بيته ، وفى طريقه إلى الكوفة علـم أنّ ابن عمه مسلم بن عقيل قد قتله " ابن زياد " وصلبه ، وتفـرَّق عنـه أهـل الكوفة وخذلوه وأرسل يزيد جيشاً بقيادة عمر بن سعد بن أبـــي وقـاص ، فلقي الحسين في كربلاء ودارت معركة دامية غير متكافئة قتل فيها الحسين وجميع من معه إلا النساء وبعض الأطفال ، ولم ينهض أهل الكوفة لنجدتـه وهم الذين استقدموه وأرسلوا إليه الرسل ، والعجيب أن الجيش الذي كـــان يقاتله كان من أهل الكوفة . . وهدأت الشيعة نسبياً بعد مقتل على وتنـــازل الحسن عن الخلافة ولكنهم ثاروا لسبِّ الإمام"على" وانتقاصه على المنـــابر ، فثار جماعة منهم ، فقبض عليهم " زياد بن أبيه " والى الكوفة وبعث بـهم لمعاوية فقتل بعضهم وفيهم "حُجر بن عدى" ، وأطلق سراح الباقيين بعـد أن تبرَّأوا من علي .. [1]

وبعد مقتل الحسين هبوا يتلاومون لخذلانهم وأعلنوا التوبة فسمُّوا بـالتوابين وأصرُّوا على الثأر لقتلى كربلاء فخرج جماعة منهم حوالي أربعـــة آلاف مقاتل بقيادة الصحابي " سليمان بن صرد " على الأمويين ، ولكنهم هزمـــوا فى عين الوردة ٦٥ هـ وقتل سليمان ، ثم خرج جماعة بقيادة (المختـــار الثقفي) زعيم الكيسانية ودعا لابن الحنفية ، فاستولى على الكوفة وهزم ابـن زياد وقتله وانتقم من قتلة الحسين ، ولاسيما ابن أبى وقاص وشـــمر بـن الجوشن ، ولكنه هزم وقتل ٦٧ هـ على يد المهلب قائد جيش مصعب بـن

---

[1] راجع العقد الفريد جـ /٤/ ٣٧٨/ ٣٨٠ .

الزبير وليس على يد الأمويين ! وقد توزعت الشيعة إلـــى نحــل متعــددة أهمها:

الكيسانية : أتباع المختار الثقفي الذي دعا لمحمد بن الحنفيـــة واتخــذ منــه إماما هو المهدى المنتظر .

الزيدية : اتباع زيد بن على بن الحسين والإمام عندهم محصور في أبنـــاء على من فاطمة ، والإمام عندهم ليس معصوما ، وهم أكثر الشيعة تسامحا.

الرافضة : وهم فرقة منشقة من الزيدية وخرجوا على زيد لعدم قوله بتكفير أبى بكر وعمر ، وعلى العمم فالشيعة تقصر الإمام في أبناء على .

ثالثا : الخوارج : هم أخطر الأحزاب وقد ظهروا عقب مهزلـــة التحكيــم وخرجوا على على وقالوا بكفره لأنه احتكم إلى غــــير الله ، ولمــا يئــس الخوارج من توبة على ، وقبوله رأيهم ، خرجوا من الكوفة إلى قرية قريبــة منها تسمى حروراء ، وأمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراســبي ، ولــهذا سموا بالحرورية . أما اسم الخوارج ، فقيل : لخروجـــهم علــى "علــي"، وقيل: من الخروج فى سبيل الله ، ويسمون أيضا الشراة ، أي الذين بــاعوا أنفسهم في سبيل الله . وقد حاربهم على — رضى الله عنه — وهزمهم فــي موقعة النهروان واستأصل فيها كثيراً منهم ؛ ولذلــك دبَّــروا لقتــل علــى ومعاوية وعمرو بن العاص ؛ لأنهم رؤوس الفتنة في نظرهم ونجح (عبــد الرحمن بن ملجم) في قتل على ، بينما فشل صاحباه (البرك بــن عبــد الله وعمرو بن بكر التميمى) في قتل صاحبه وظلوا مصدر إزعاج لبنى أميـــة وسببوا (للحجاج) واليهم على العراق حرجاً بالغاً ، ولولا انقسامهم علــــى أنفسهم لكان للتاريخ وجه آخر ، فقد انقســـوا إلــى الأزارقــة والنجــدات والصفرية والإباضية ، وكان أشدهم (الأزارقة) أتباع نافع الأزرق وهـــى أكبر الفرق وأقواها ..

والخلافة عندهم حق لكل مسلم مادام متصفاً بالعلم والعدل والزهد ، لا فـوق بين عربي وعجمي أو حر وعبد ، والخلافة شورى ، ورغم تسامحهم فـــي

تلك المبادئ التي تعلو على التعصب للجنس فإنهم بالغوا في تكفير خصومهم المسلمين وعدُّوا دارهم دار حرب لقتالهم وسبي نساءهم ، وأخذ أموالهم ، ولم يستحلوا الصلاة معهم ..!

رابعا الزبيريون : هم أتباع الزبير بن العوام ، الذي خرج على "علي" بعد التحكيم بيد أنه لم يشارك في معركة الجمل ، وكان قد ثار ضد تولية يزيد ابن معاوية الخلافة كما ثار الحسين وإن لم يخرج كما خرج ، وكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز وأن يتولاها أحد من أبناء الصحابة من قريش ؛ ولهذا دعا لنفسه بعد وفاة معاوية ، وقد دانت له أكثر البلاد الإسلامية .

وكان ابن الزبير يشارك في التأليب على "علي" فيقال : إنه حثَّ خالته السيدة عائشة على الخروج إلى البصرة وحرَّض أباه على القتال وكان عبد الله من ذوى الطمع والدهاء وكان معاوية يخشى منه على ابنه (يزيد) ويحذِّره منه بقوله : إنه يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته الفرصة وثب ، فإن هو فعلها وظفرت به فقطعه إربا إربا.

وقد وجد عبد الله استجابة له في مكة والمدينة ، ولاسيما بعد مقتل الحسين فجرد يزيد جيشا لقتاله بقيادة (مسلم بن عقبة المرّي) فأوقعه بالمدينة ثم زحف إلى مكة ، ولولا موت يزيد ، ونشوب الخلاف بين الأمويين على الخلافة لهزم عبد الله إلا أنه وجد الفرصة ليمتد بحصاره إلى العراق والشام ومصر وفارس وخراسان واليمن ، فلما تولى (مروان بن الحكم) الخلافة أخذ يستجمع الأنصار ويستجلب الأعوان من القبائل الموالية ، واستطاع أن يستخلص الشام ومصر من الزبيريين ثم جاء عبد الملك بن مروان ، فالتقى بمصعب بن الزبير فقتله ، ودخل الكوفة سنة ٧٢ هـ ولم يبق إلا عبد الله بن الزبير بمكة فكلَّف به الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اتجه إلى مكة فحاصرها ثمانية أشهر ، وضرب الكعبة بالمنجنيق حتى احترقت ، وحتى تخلى الناس عن عبد الله فقتل سنة ٧٣ هـ وصلب ، وبذلك انتهى الحزب الزبيري بمقتله ؛ لأنه حزب فردي .

ولقد كان لكل حزب شعراؤه الذين يؤمنون بعقيدته ومبادئه ، ويبشرون بـــها ويدافعون عن حقهم بالخلافة ، ويناقشون خصومــــهم ، ولمـــا كـــان حـــظ الزبيريين من السياسة قليلاً ، كان كذلك حظهم من الشعر ، بينما كان حـــظ الأمويين أوفر في الحكم والشعر ، إذ التف حولهم كثير من الشعراء ، إمـــا رغبة أو رهبة أو عن اقتناع ، وسنعرض لبعض من هذا وذاك .

أولا : الخوارج : لعلهم من أصدق العرب فطرة ، وتمسكاً بالدين وتفانيـــاً في سبيل المبدأ والعقيدة ولقد كان معظمهم من البدو أصحاب الفطر السـليمة والطبع الحار القاسي الذي لا يعرف مهادنة ، ولم تكفكـــف مـــن غلوائـــه الأحداث ، ولم تفسده المدنية ؛ ولهذا كان شعرهم ممثلاً لنفسيتهم ، صادقـــاً بريئا من التكلف ، ولقد كان الدعاة منهم هم الشعراء ، وليس لهم شـــعراء محترفون يبشرون بدعوتهم أو يلتفون حولهم ؛ وذلك أنهم لم يعطوا من مال الله إلى الشعراء ، وكان من مبادئهم الخروج في سبيل الله والثورة ، وفـــي هذه الحالة سيكون شاعراً داعياً ثورياً ؛ ولهذا كان شـــعرهم معـــبراً عـــن تجاربهم ومبادئهم ، وهم في رثائهم لم يسيروا على النمط المعروف ، وقـــد كان الراثي يتمنى ميتةً كميتة المرثي وإقداماً كإقدامه وشجاعة كشـجاعته ، وهذا عمران بن حطان يرثي أبا بلال بن مرداس بن أدية فيقول :

لقد زاد الحيـــاةَ إليَّ بغضاً	وحبـــاً للخروج أبو بـــــلالِ
أحاذر أن أموت على فراشي	وأرجو الموت تحت ذرا العـــوالي
ولو أني علمت بأن حتفـــي	كحتف أبـــي بــــلالِ لم أبالِ

لقد خرج شعرهم على نمط القصيدة الجاهلية فخلا من المقدمـــات الطلليـــة والغزلية ، إلا نادراً كما أنه مال إلى القطع القصار ، فلم تطل القصيـــدة إلا عند شعرائهم الكبار كالطرماح وعمران بن حطان .

وهذا قطري بن فجاءة يصور تجربته مع الحرب ، وما كان منه من خـــوف وفزع وحواره مع نفسه حتى تثبت في مجال الموت ، مبيناً لها ومذكـــراً أن الخلودَ غير مستطاع ، وأن العمر بيد الله.

أقول لها وقد طارت شـــعاعا — من الأبطال ويحكِ لن تراعي

فإنكِ لو ســــألتِ بقــاء يومٍ — على الأجل الذي لكِ لم تطاع

فصبراً فى مجال الموت صبراً — فما نيــل الخلـــود بمستطاع

ولا ثوب البقاء بثـــوب عزٍّ — فيطوى عن أخي الخنع اليراع

سبيل الموت غاية كل حــــي — فداعيــــــه لأهل الأرض داع

ويقرر عمران بن حطاب مبدأً من أهم مبادئهم وهو الأخوة الإســـلامية وأن الأفضلية ليست بالعِرق ولا بالجنس .. بل بالتقوى:

فنحن بنو الإسلام والله واحد — وأولى عباد الله بالله من شكر

وأثر الإسلام في شعر الخوارج واضح ، فقول عمران هذا يؤكـــد الأخـــوة الإسلامية ويجعلها أصل الرابطة بين المسلمين مستلهماً قوله تعالى : " إنمــا المؤمنون إخوة " في الشطر الأول ، وفى الأخر : استلهم قوله تعالى : " إن أكرمكم عند الله أتقاكم ... "

ونظرة إلى أبيات قطري السابقة ، يتضح أثر الإسلام فى الفكرة الأساســـية التي تقوم عليها إذ هى تتفق والآية الكريمة : " لكل أجل كتاب " ، كما تتفـق مع قوله تعالى : " كل من عليها فان " .

وفى إحدى معاركهم ، وكانوا أربعين رجلا ، انتصروا على أسلم بن زرعة قائد ابن زياد ومعه ألفان ، فقال " عيسى بن فاتك " أحد شعرائهم :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا — إلى الجرد العتاق مسومينا

فلما استجمعوا حملوا عليهم — فظل ذوو الجعائل يقتلونا

هم الفئة القليلة غير شــك — على الفئة الكثيرة ينصرونا

ويتضح تأثره بالقرآن الكريم في قوله تعالى : " كم من فئة قليلة غلبت فئـــة كثيرة بإذن الله .. "

أما الشيعة : هو حزب له أنصاره المؤمنون بعقيدته ، وله أحبابه المتعـــاطفون معه ، وكان له شعراؤه الناطقون بلسانه والمدافعـــون عنـــه ، المـــهاجمون لخصومه . وشعراء هذا الحزب يختلفون عن شعراء الخوارج فى كونهم لم

يقصروا شعرهم علىَ معتقدهم ، كما فعل معظم شـــعراء الخـــوارج ، بـــل عبَّروا عن مذهبهم السياسي فمدحوا وهجوا ، فقد مدح الكُميت الأمويـــين ، وإن كان قد اضطر إلى هذا المدح خوفاً من القتـــل ، وذلـــك لأن الشـــيعة يؤمنون بالتُقية بخلاف الخوارج ، والكميت شاعر الزيدية لا يرضى بشـــتم أبى بكر وعمر ولا بكفرهما ، وهذا يتفق مع عقيدتهم التي تجـــوِّز إمامـــة المفضول مع وجود الأفضل ، يقول :[1]

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا   أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

ولا أقول وإن لم يعطيا فدكا[2]   بنت الرسول ولا ميراثه كفرا

الله يعلم ماذا يأتيـــــان به   يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

كما مدح الأمويين كثَيِّر وهو من شعراء الشيعة ، وكان أيمـــن بـــن خريـــم الأسدى من المتشيعين المحبين لآل البيت من غير نزوغ إلـــى فرقـــة مـــن الفرق ، وقد مدح الأمويين وأخذ نوالهم ، ومما قاله فى بنى هاشم :

نهاركم مكابدة وصـــــوم   وليلكم صَلاة واقتـــراء

وليتم بالقُران وبالتزكّـــي   فأسرع فيكمُ ذاك البلاء

بكى نجدٌ غداة غدا عليكم   ومكة والمدينة والجواء

ألُجعلُكم وأقواماً ســـواء   وبينكمُ وبينهمُ الهواء [3]

وقد يلجأ الكميت إلى أسلوب التصوير المثير الذى يكشـــف عـــن مســـاوئ الأمويين كما كان يلجأ إلى الهجوم السافر على بنى أمية من مثل قوله :

فقل لبنى أمية حيث حلُّوا   وإن خفتْ المهنَّد والقطيعا

أجاع الله من أشبعتمـــوه   وأشبع من بحوركمُ أجيعا

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي ص ٢٨٣

(٢) فدك قرية بخيبر صالح الرسول صلى الله عليه وسلم أهلها على نصف أرضهم مـــن غير أن يرسل جيشا فاعتبرت خالصة له ، وكان ينفق منها على أبناء الســـبيل ، فلمـــا توفى الرسول طالبت فاطمة بها فأبى أبو بكر وعمر لقول الرسول عليه السلام : نحـــن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة .

(٣) الأغاني ٢٠ج ص/ ٢١٠

بمرضى السياسة هاشمي يكون حياً لأمته ربيعا

أما الحزب الزبيري : فقد كان قصير العمر حيث دخل في صراع مع الشيعة والخوارج والأمويين ، ولم يقم على أساس من المبادئ التي يتحمس لها أنصارها ولم يكن له غير شاعر واحد هو عبيد الله بن قيس الرقيات الذي وافق ما دعا إليه عبد الله بن الزبير هوىً في نفسه وحباً لقريش ، فنجده يمدحه ، فيقول :

وابن أسماء خير من مسح الركـن فعالاً وخيرهمُ بنيانا

وإذا قيل من هجَان قريش كنت أنت الفتى وكنت الهجانا

وقد اتصل عبيد الله بن الرقيات بمصعب بن الزبير أخي عبد الله ومدحه ، وعبّر في مدحه عن حرصه على مجد قريش ومناه أن يراها متحدةً لا تفرّقها الأهواء ، فقال:

حبذا العيش حين قومي جميع	لم تفرّق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل في مُلـ	ـك قريشٍ وتشمت الأعداء
أيها المشتهي فناءَ قريشٍ	بيد الله عمرُها والفناء
إنما مصعب شهاب من الله	تجلّت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه	جبروتٌ ولا به كبرياء

ثم يظهر ثورته على الأمويين :

كيف نومي على الفراش ولمّا	تشمل الشام غارة شعواء
تُذهل الشيخ عن بنيه وتبدي	عن براها العقيلة العذراء

****

النقائض الشعرية :ومعناها أن يتجه شاعر إلى آخر بقصيدة هاجياً أو مفتخراً ، فيردُّ عليه آخر هجاءه أو فخره ملتزماً البحر والقافية والروي الذي اختاره الأول ، والغرض والموضع الذي نقضه وقلّبه على صاحبه وقد تلتزم حركة حرف الرَّوي في الغالب ، وقد لا تلتزم كما جاء في لاميتي الفرزدق وجرير ؛ إذ قال الفرزدق قصيدة مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعـــزُّ وأطـــولُ

فردَّ عليه جرير بنقيضة مطلعها :

لمن الديار كأنها لـــم تحـــلل   بين الكُناس وبين طلح الأعزل

فحركة الروى فى الأولى ضمة ، وحركته فى الثانية كسرة

والنقائض تعكس جانباً من الجوانب الاجتماعية وهو جانب الصراع القبلي وهى بهذا المعنى تكون فى الفخر والهجاء كما تكون في المديـــح والتغـــزل والرثاء ، وكما تُصاغ شعراً تُصاغ نثراً ، وهى فن قديم ، ارتبط بالهجــــاء والفخر منذ الجاهلية بدافع العصبية القبلية ، ولأسباب سياسية ترك الأمويون تلك العصبية تستعر ، بل ربما يُشعلونها نارا ، أو يساعدون على إشــعالها؛ لذا شاعت النقائض ، وكان واليهم على العراق "بشر بن مروان" يحـــرِّض الشعراء على الهجاء ويُغرى بينهم ؛ حتى يحتفظوا [1] بسلطانهم من خـــلال هذا التوازن القبلى ، وقد شاع هذا الاتجاه نتيجـــة للفـــراغ الـــذى وفَّـــره الازدهار الاقتصادى ، الذى تمَّ نتيجةً لتدفق الأموال الناتجة عن الفتوحات ، ومحاولة ملء هذا الفراغ بهذه الإثارة الشعرية ، كما ساعد عليه فى الوقـــت نفسه الأسباب الإجتماعية ، والعوامل السياسية ، ومادام الأمر هنا هـــو أن ينقض شاعر ما ادَّعاه آخر، فمن الممكن أن تشمل كل الأغراض ، إلا أنها ذاعت وانتشرت فى الفخر والهجاء ، القبلي .

والظاهرة الفنية التي تلفت النظر فى شعر هذه الحقبـــة كـــثرت النقـــائض وانتشارها وبخاصة فى أثناء القتال الذى دار بين على ومعاوية فالمقاتل من جند على يخرج وهو يرتجز مفتخراً ببطولته ، فيبرز له مقاتل مـــن جنـــد معاوية بقصيدة من القافية نفسها مفتخراً ببطولته أيضا ، معتداً بدفاعه عـــن معاوية وخروجه معه للثأر لعثمان والمقاتلون من كلا المعسكرين كانوا من قبل يتبادلون القصائد وينقض بعضهم على بعض ما يدعيه .. ولعل أشـــهر

(١) راجع التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٦٧ وطبقات فحول الشعراء ص٤٤٠، ٤٥٢ ، ٤٧٤ .

نقيضتين فى تلك الحقبة هما اللتان دارتا بين كعب بن جُعيل شاعر معاوية والنجاشى الحارثي ، شاعر علي ، فقد قال كعب قصيدته:

أرى الشام تكره ملك العراق   وأهل العراق له كارهونا

فامر على شاعره أن يردَّ عليه ، فقال :

دَعَنَّ معاويَّ ما لن يكونا   فقد حقَّقَّ الله ما تحذرونا

أتاكم عليٌّ بأهل العراق   وأهل الحجاز ، فما تصنعونا ؟

يَرَون الطِّعان خلالَ العَجاج   وضربَ القوانس فى النَّقْع دينا

فإن يكره القومُ ملكَ العراق   فقدْماً رضينا الذى تكرهونا

فقولوا لكعب أخي وائلٍ   ومن جعل الغث يوما سمينا

جعلتم عليا وأشياعه   نظيرَ ابن هند ، أما تستحونا ؟

فالنجاشى هنا ينقض على كعب قصيدته فإذا كانت الشام تكره ملك العراق ، كما يقول كعب ، فإن العراق كما يقول النجاشي يرضى بما يكرهون ، وإذا كان كعب يجعل معاوية نظير على فإن هذا فى رأي النجاشي تبجُح وعدم استحياء ، فما يستوى على ومعاوية إلا عند قوم يقلبون الحقائق ولا يستحون من أن يجعلوا الغث والسمين يستويان.. وعلى الرغم من شهرة هذه النقيضة نلاحظ عليها ضعف الانفعال النفسى مما ترتب عليه قلة حظها من الأصالة الفنية .. وهذا الانفعال الضعيف وهذا السخط البارد الذى ينزل إلى مستوى العتاب ، فإنها كلها لا تتفق وطبيعة الموقف العنيف الذى كان فيه المسلمون فى ذلك الوقت . [1]

ولقد كانت المادة التى استغلَّها الشعراء فى الفخر والهجاء هى ما كان من أمر قبائلهم فى الجاهلية أو فى الإسلام ، فالمكارم وألوان الشجاعة التى ذاعت عنهم فى الجاهلية ، فى أيامها ومعاركها ، وفى قصصها ، وما عرف عنهم من الكرم والنجدة ، كل ذلك كان مادة للفخر.

---

(١) راجع حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة د/ يوسف خليف ص ٣٤٨ : ٣٥١

كما كان سلوك المهجو نفسه أو دينه مادة للنقائض ؛ ولهذا كان جرير يهجو الأخطل ويعيّره ، ويعير قومه بنصرانيتهم :

عبدوا الصليب وكذّبوا بمحمد وبجبرائيل وكذّبوا ميكالا [(١)]

ويُعيّرهم كذلك بأكلهم الخنزير وضلالهم وبعدهم عن دين الهدى :[(٢)]

رجس يكون إذا صلوا ، أذانُهُم قرع النواقيس ، لا يدرون ما السُّوَرُ
الضاحكين إلى الخنزير شهوته يا قُبّحتْ تلك أفواهاً إذا كشروا
والمقرعين على الخنزير ميسرَهم بئس الجزور وبئس القوم إذ جزروا
جاء الرسول بدين الحق فانتكثوا وهل يضير رسولَ الله أن كفروا

وعيّر الفرزدق بفسقه وارتكابه ما حرم الله :[(٣)]

أتيت حدود الله مذ أنت يافعٌ وشبتَ فما ينهاك شيبُ اللهازمِ
تَتَبّعُ في الماخور كلَّ مريبة ولست بأهل المحصنات الكرائم

ولهذا كان أحدهم إذا أراد هجاءً درس حال المهجو(سلوكه وتصرفه) وحال قبيلته ، والتمس ما يحطُّ من قدره أو قدرها ، فأذاعها في أبشع صورة ، فحينما أراد جرير أن يردَّ على العباس بن يزيد الكندي هجاءه الذي قال فيه:

ألا رَغِمت أنوف بني تميم فُساة التمر إن كانوا غضابا
لقد غضبت عليك بنو تميم فما نكأت بغضبتها ذبابا
لو اطّلع الغراب على تميم وما فيها من السوءات شابا

فعرف جرير من قومه مثالبه ، وأنه جاور عتاباً في طيِّئ فحبَّل أخته هضيبة ، وأن العباس قتلها ووليدها ، فقال :[(٤)]

إذا جهل الشقيُّ ولم يقدِّر لبعض الأمر أوشك أن يُصابا
أعبداً حلَّ في شُعَبَي غريباً ألؤماً لا أبا لك واغترابا
فما خفيتْ هضيبةُ حين جُرَّت ولا إطعام سخلتها الكلابا
فقد حملت ثمانيةً وأوفتْ بتاسعها وتحسبها كَعَابا

---

(١) شرح ديوان جرير، مهدي محمد ناصر ط/ بيروت لبنان ص/ ٣٣٩ .

(٢) المصدر السابق ص/ ١٩٤ـ ١٩٦

(٣) المصدر نفسه ص/ ٢٤٢ .

(٤) الأغاني ٨/٢١ وشرح ديوان جريرص/ ٥٦ ــ ٥٧ .

وليس معنى ذلك أن كلَّ ما في النقائض صدق أو أن الشعراء التزموا فـــي فخرهم وهجائهم الصدق ، وإنما حاول الشاعر أن يصادف ما يقول أصـــلاً في الواقع ، حتى يكون له أثره ، وعلى كلٍ فالأمر لم يخلو من مغالطـــة أو استغلال لحادثة ، بل كانوا يلجأون إلى الكذب والادعاء أحياناً ! فهذا جرير ينسب الفرزدق إلى القين (عبد كان لجده صعصعة) يسمى جبيراً ، فقال :

وجدنـــا جبيـــراً أبا غالب بعيد القرابـــة مـــن معبـــدِ

أتجعل ذا الكيـــر من دارم وأين سهيل مـــن الفرقـــدِ !

ثم قد يخترع الشاعر صوراً ساخرة مضحكة لينال من خصمه ، ولو لم يكن لها ظل من الحقيقة.

ويطلب بشر بن مروان من الأخطل أن يحكم بين جرير والفرزدق ، وكان الثلاثة عنده مجتمعين ، فيطلب الأخطل من الأمير أن يعفيه فيأبى فيكـــون حكم الأخطل : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر فلم يرض جرير بذلك ، وقيل : إن الأخطل كان يرى أن جريراً أفضل ، وصرَّح بذلك فبعث إليه محمد بن عمير وهو من بني دارم أخي مجاشع بدراهم وحملان وكسوة وخمر ، وطلب إليه أن يفضِّل شاعرهم الفرزدق ، فقال الأخطل:

إخسأ كليبا إن مجاشعـــــا وأبا الفوراس نهشلا أخـــوانِ

قومٌ إذا خطرت إليك قرومهم جعلوك بين كلاكلَ وجـــرانِ

وإذا وضعت أباك في ميزانهم رجحوا وشال أبوك في الميزان

فردَّ عليه جرير قائلاً :[1]

ياذا العباية إن بشْراً قد قضى أن لا تجوز حكومـــة النشْوانِ

فدعوا الحكومة لستمُ من أهلها إن الحكومـــة فـــي بني شيبانِ

قتلوا كليبكموا بلقحة جارهم ياخزي تغلب لستمُ بهجـــــانِ

* * * * * *

---

[1] الأغاني ج ٨ /١٧ ، ج ١١ /٦١

عناية الخلفاء الأمويين بالأدب وتشجيعهم عليـــه :

كان لمعاوية ولعٌ خاص بالشعر وقد أفسح له في مجالسه ، وكذلك اتبع خلفاؤه من بنى أمية طريقته ؛ ليشتروا ألسنة أولئـــك الشـــعراء ويرضـــوا رغباتهم بما تفيض به قرائحهم من جيد المديح أو القصـــائد التـــى حفلـت بالرائع من فنون القول ، ومما يرويه المبرِّد فى هذا المقام : أن يزيـــد بـــن معاوية لما غضب على الأنصار حاول أن يدفع " كعب بن جعيل " التغلبـــي إلى هجائهم ، فقال له كعب : أأهجو الأنصار ؟ .. أراديٌّ أنت إلى الكفر بعد الإسلام ؟ ولكن أدلك على غلام من الحي كأن لسانه ثور – يعني الأخطـــل – فأغرى يزيد الأخطل بهم ، فقال قصيدته التى نال فيها مـــن الأنصـــار ، ومن أبياتها :

خلوا المكارم لستمُ من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار

ذهبت قريش بالمكارم كلهـــا واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلمّا سمع النعمان بن بشير الأنصارى هذا الهجاء دخل على معاوية فحســر عمامته عن رأسه ثم قال : يامعاوية أترى لؤماً ؟ فقال : ما أرى إلا كرماً ، فقال النعمان يتهدده ويتوعده فى قصيدة منها :

معاويَّ إلا تُعطنا الحق تعترف لحيِّ الأزدِّ مسدولاً عليـــها العمائـــم

أيشتمنـــا عبد الأراقـــم ضلَّـــة فمـــاذا الذى تجدي عليـــك الأراقـــمُ

فما لي ثـــأرٌ دون قَطع لسانه فدونك من ترضيه عنـــك الدراهـــم

ولما سمع معاوية القصيدة أمر بدفع الأخطل إليه ليقطع لسانه ، فاســـتجار بيزيد ، فمنعه ، وأرضى النعمان حتى كفَّ عنه ..

ومما يروى عن تشجيع الخلفاء الأمويين للشعراء وإذكاء روح المنافسة فيما بينهم أنه قد اجتمع جرير والفرزدق والأخطل فى مجلس عبد الملـــك بـــن مروان ، فأحضر الخليفة بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار وقال لهم : ليقل كل منكم بيتاً فى مدح نفسه فأيُّكم غلب فله الكيس ، فبدر الفرزدق ، فقال :

أنا القطران والشعراء جـــرْبى وفى القطران للجربى شفاء

فقال الأخطل :

فإن تك زقَّ زاملة فإني   أنا الطاعون ليس له دواء[1]

فقال جرير:

أنا الموت الذى أتى عليكم   فليس لهارب منــى نجاء

فقال عبد الملك مخاطباً جرير : خذ الكيس ، فلعمري إن الموت يأتي علــى كل شيء ! ، والأمثلة الدالة على هذا التشجيع من جانب الخلفــاء للشــعر وأهله فى هذا العصر تحفل بها كتب الأدب ، وتبدو كلها وكأنها مباريــات أدبية تقام تحت رعاية الخلفاء ، فيسارع إليها الشعراء ، وهم يتنافسون فــى إبراز البديع المعجب من فنون القول وروائع البيان .[2]

المجامع الأدبية والثقافية :

وإذا كانت تلك المباريات الأدبية على هذا المستوى المحدود فــى مجــالس الخلفاء الأمويين دافعاً للأدباء والشعراء منهم بوجه خاص ، إلــى العنايــة بشعرهم والإجادة فيه ، فلا يخفى تمسك المجتمع الإسلامي في ذلك العصر بعروبته ، وأن هؤلاء القوم يطربهم الشعر القوي .. ولقد اشتهرمن مجــامع الأدب والشعر فى العراق : سوق مربد البصرة ، وكناسة الكوفة .. ولئــن كان لعكاظ – فى الجاهلية – أثر لا يجحد فى اللغة العربية ، فــإن ســوقَي العراق فى العصر الأموى – وبخاصة المربد – لم يقلا شأناً بل زادا عليها وذلك لأن انتشار الإسلام فى هذه البلاد كان من أهم الأسباب التى أدَّت إلى اختلاط العرب بغيرهم ، ومن ثمَّ تطرق اللحن إلى اللغة وشابتها العجمــة ، حتى غشى هذا الضعف مجالس الخاصة مــن العــرب وأزرى بلهجــات بعضهم ، فلم يكن غريباً أن تعجَّ سوق المربد بأعلام اللغة والأدب ، وهــم يحملون محاربهم ودفاترهم ، يكتبون عن فصحاء الأعراب لغتهم المُصفَّاة ، وها هو ذا أبو العلاء يسأل الأصمعي : " من أين أقبلت ؟ " فيجيبه :

---

(1) الزق : السقاء ، والزاملة : الدابة التى يحمل عليها من الإبل وغيرها

(2) راجع الحياة الأدبية في العصرين الأموي والعباسي الأول ، المجلد الثاني د/ صلاح الدين محمد عبد التواب ص/ ١٨:١٤ .

" جئت من المربد ". فيقول : " هاتِ ما معك " فيقرأ عليه الأصمعي ما كتب في ألواحه ، فإذا ستة أحرف (كلمات) لم يعرفها أبو عمرو ، فيقول للأصمعي : " شمّرت في الغريب " أي غلبتني [1] وهذه ظاهرة لم نعهد مثلها في (عكاظ) ! وليس بعجيب أن تتفوق سوق المربد على سوق (عكاظ) في أمر الشعر وحلقاته ، فلكل شاعر فيها حلقة ، ولكل متهاجيين مجلس ، ولكل قبيلة ناد وشاعر يذود عنها ويردُّ عدوان قريعه من القبيلة الثانية ، حتى نتج من هذا محصول وافر من الرجز والشعر والطرائف الأدبية التي امتلأت كتب الأدب بأخبارها .. وفي مكة أيضاً انتشرت تلك المجالس الأدبية ، وبخاصة في مواسم الحج ، ومما يروى في هذا السبيل [2] أن ابن عباس رضي الله عنه كان بالمسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين مورّدين حتى دخل فجلس ، فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : ألا تنشدنا شيئاً من شعرك ؟ فأنشده رائيته المشهورة ، والتي يقول فيها :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر   غداة غد أم رائح فمهجر
بحاجة نفس لم تقل في جوابها   فتبلغ عذراً والمقالة تعذر
تهيم إلى نُعم فلا الشمل جامع   ولا الحبل موصول ولا القلب مقصر
ولا قرب نعم إذا دنتْ لك نافع   ولا نأيُها يُسلي ولا أنت تصبر

حتى أتمها ، وهي ثمانون بيتا ، فأقبل نافع بن الأزرق على ابن عباس وقال له : لله أنت يا ابن عباس ، أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه ؟ فقال : تالله ما سمعت سفهاً ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأت رجلا أمّا إذا الشمس عارضَتْ   فيخزى وأما بالعشي فيخسَر

فقال ابن عباس : ما هكذا ، إنما قال :

---

(1) المرجع السابق بتصرف ص/ ١٨ ــ ٢٠والنوادر للقالي /١٨٢

(2) الكامل للمبرد ص ١٦٨ ، ١٦٩ جـ مكتبة المعارف بيروت

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضتْ فيضحَى[1] وأما بالعشى فيخْصَر[2]

فقال: أو تحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتي هذه ، ولوشئت أن أُرِدِّها لردَّدتــُها ، قال : فارددها ، فأنشده إياها ! وروى الزبيريون أن نافعاً قال له : ما رأيتُ أروى منك قط ، فقال له ابن عبــاس : مــا رأيــت أروى من عمر ، ولا أعلم من علي [3] وهكذا تتضح عناية المجتمع المكي بالأدب وأهله ، وأن هذا المجتمع الأدبي فى مكة كان حافلاً بمــا يتناشــده الشعراء على وجه الخصوص دون حرج أو قيود .

وأما فى المدينة : فلم تكن شهرتها الأدبية والثقافية بأقل منها فى مكــة لمــا اشتهر به أهلها من الذوق الحساس والنقد اللماح منذ الجاهليـــة . ومنــذ أن هاجر إليها الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم ولاينسى التاريخ الأدبى تلــك الوقفة الخالدة التى وقفها شعراء المدينة وعلى رأسهم حســـان بــن ثــابت الأنصاري للذود عن الإسلام ورسوله . وقد أخذ الشعراء فــــى مجالســـهم بالمدينة يتناشدون الشعر وينقدونه ويستعرضون منه ما يعيبون من رديئـــه ويستحسنون من جيده ، ومما يروى فى هذا المقام أن عمر بن أبى ربيعـــة قدم المدينة فاجتمع به الأحوص ونصيب وكثير ، فتحدثوا ملياً وأفاضوا فى ذكر الشعراء ، فأقبل كُثيِّرعلى عمر ، فقال له : إنك لشاعر لولا أنك تشبب بالمرأة ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرنى يا هذا عن قولك :

ثم اسبطرت تشتدُّ فى أثرى تسأل أهل الطواف عن عمر [4]

أتراك لو وصفتَ بهذا هرةَ أهلك ألم تكن قد قبــُحت وأسأت وقلت الهجـــر؟ إنما توصف الحرة بالحياء والإباء والبخل والامتناع ، ألا قلت كما قال هذا ، يعنى الأحوص :[5]

---

(١) يضحى : يظهر للشمس ولايستتر منها

(٢) يخصر : مضارع خصر : إذا أصابه البرد وألمسه .

(٣) الكامل للمبرد ١٦٩

(٤) أسبطرت : أسرعت ، تشتد : تعدو

(٥) القبيح من الكلام

أدوز ولولا أن أرى أم جعــفرٍ　　بأبياتكم ما درتُ حيث أدور

وما كنت زواراً ولكنَّ ذا الهوى　　وإن لم يَزُر لابدَّ أن سيزور

لقد منعت معروفـــها أم جعفر　　وإني إلى معروفـــها لفقيــر

فانكسرت نخوة عمر بن أبي ربيعة ، ودخلت الأحوص أبهـــة ، وعرفــت الخيلاء فيه ، فلما استبان كُثير ذلك فيه ، قال : أبطل آخرُك أوَّلكَ ، أخبرني عن قولك :

فإن تَصلي أصلك وإن تَبيني　　بهجر بعـد وصلك لا أبالي

أما والله لو كنت حراً لباليت ، ولو كسر أنفك ، ألا قلتَ كما قال هذا الأسود وأشار إلى نصيب :

بزينبَ أَلْمم قبلَ أن يرحل الركب　　وقـُل إن تَملينا فما ملَّك القلبُ

فانكسر الأحوص ودخلت نصيباً زهوة ، فلما نظر أن الكبرياء قـــد دخلتــه إلتفت إليه وقال : وأنت يا ابن السوداء ، أخبرني عَن قولك :

أهيم بدعد ما حييت فإن أمـُت　　فواكبدي من ذا يهيم بها بعدي

أهمك - ويحك - من يهيم بها بعدك ؟

فلمّا أمسك كثير أقبل عليه عمر ، فقال له : قد أنصتنا لك فاسمع ، أخبرني عن تخيرك لنفسك وتخيرك لمن تحب حيث تقول :

ألا ليتنا ياعــزُّ من غيرِ ريبــةٍ　　بعيران نرعى في الخلاء ونعزب

كلانا به عُــرٌّ فمَن يرنا يقُــل　　على حسنها جرباء تعــدى وأجرب

إذا ما وردنا منهلا صاح أهلــه　　علينـــا فما ننفــك نُرمى ونُضــرب

وددتُ (وبيت الله) أنك بكــرة　　هجـَان وأني مصعب ثم نهْــرُب [1]

نكون بعيري ذي غنىً فيضيعُنا　　فــلا هــو يرعانا ولا نحن نطلب

---

(١) البكرة : الناقة الفتية ، وناقة هجان : بيضاء كريمة ، والمصعب : الفحل الذى يترك فلا يركب .

فقد تمنيتَ لها ولنفسك الرِّق والجَرب والرَّمى والطرد والمسخ ، فأىُّ مكروهٍ لم تمنَّ لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك قول القائل : " معاداة عاقل خير مـــن مودة أحمق .. فجعل يختلج جسده كله ، وقام القوم يضحكون .

وفى العراق : سبقت الإشارة إلى ما كانت تحفل البصرة به مـــن مجـــالس أدبية وبخاصة فى " المربد " حيث كان سوقها من أهم ميادين المنافسة بيـــن الشعراء والأدباء ، يتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم وسابق أمجــــادهم ، كمـــا يهجون خصومهم وأعداءهم بينما يقف الخصوم يردون أوينقضون .. وكان من أبرز الشعراء فى هذا الفن الفرزدق وجرير ..

وإلى جانب هذه الحياة الأدبية برَّز آخرون فى النشاط الفكـــري والثقـــافي ففي البصرة : كان من أشهرهم أبو موسى الأشعرى والحسن البصرى وابن سيرين ، أمَّا فى الكوفة : فقد برَّز من علمائها عبد الله ابن مســـعود (مـــن الصحابة) وشريح والشعبى وسعيد بن جبير من التابعين ، وفيهـــا اشـــتهر كذلك أبو حنيفة النعمان . ولقد كانت هناك منافسة شديدة بيـــن كـــل مـــن البصرة والكوفة فى مجالس العلم والأد ب ، ولعل مرجع ذلك إلى العصبية القبلية التي يتمسك بها كل فريق فعرب الكوفة ومواليها يتعصبون للكوفـــة ، وعرب البصرة ومواليها يتعصبون للبصرة ، وظهر أثر هذه العصبيات فى المناظرات العلمية والمفاخرات الأدبية ، حيث لمسنا من بعد أثر كـــل مـــن البصريين والكوفيين فى النحو ، وأثرهم فى الفقه وأثرهـــم فـــى المذاهـــب الدينية وعلم الكلام واللغة والأدب ..

<u>الموالى وأثرهم فى الحياة الأدبية :</u>

حرص الأمويون – منذ أن استولوا على زمام الحكم –على أن تبقى دولتهم عربية خالصة ، من حيث أشخاص الخلفاء وولاتهم وقوادهم ، بـــل ومـــن حيث التقاليد الاجتماعية وغيرها من مختلف مظاهر الحياة .

وإذا كان يشفع للأمويين – فى هذا الأمر – غيرتهم على عروبتهم التليـــدة فى سمو خلقها ورفيع بيانها ، واعتدادهم بعروبتهم الطريفة ، حيث الإسلام ودولته العزيزة الغالبة ، إلا أنهم يبدون وقد جاوزوا الحد فى هذا الاعتـــداد

وتلك الغيرة ، حيث استطالوا على الموالى – واحتقروهم واعتبروهم دونهم دماً وجنساً ولغة وأدباً وشجاعة وخلقا – وهذا بالطبع أمر يأباه الإسلام كـل الإباء ، حيث جعل مقياس التفاضل بين الناس فى التقوى والعمل الصـالح دون غيره .

ومن هنا كان ردُ الفعل من جانب أولئك – الموالى – عنيفا [1] حيث تولـد فى نفوسهم تيار عكسى نقموا به على العرب الذين خرجوا علـى أصـول الإسلام ، ثم لم يلبث هؤلاء الموالى أن أخذوا يعتزون هم أيضـا بمجدهـم التليد ودولتهم الذاهبة ذات الحضارة الراقية ، والآثـار الباقيـة والسـلطان العظيم والغنى العريض ، فى حين كان فى العرب الفقراء الجهـلاء الذيـن يئدون بناتهم خوف الإملاق أو العار ، كما كان فيهم الذين يضربـون فـى الصحراء يبطشون ويسفكون الدماء ..[2]

الشعر الشعوبي :

إذا كان شعر النقائض يعكس جانباً من الجوانب الإجتماعية وهـو الصـراع القبلي فإن الشعر الشعوبى يعكس جانباً آخر هو الصراع الجنسى أو صراع الشعوب ، وكما كان الشعر القبلي يقوم على الفخر فى قبيلة الشاعر والحـط من قدر الآخر فإن الشعر الشعوبى يقوم على أساس فخر الشـاعر بجنسـه والحطّ من قدر العرب ، **وقد ظهرت الشعوبية في العصر الأمـوي ، ثـم استفحل أمرها في العصر العباسي ، منتهزةً فرصة ضعف الخلافة .**

الشعوبية أو العناصر الأجنبية:

هى كلمة تطلق على الروح الانفصالية التى سادت الشعوب العريقـة فـى المدنية قبل الإسلام ومحاولتها الخروج على العـرب المسـلمين أصحـاب

(١) سمى العجم موالى ، لأن بلادهم فتحت عنوة بأيدى العرب وكان للعرب استرقاقهم فإذا تركوهم أحرارا فكأنهم أعتقوهم ، والموالى : المعتقون – راجع فجر الإسـلام ص ١٠٤ للأستاذ أحمد أمين.

(٢) راجع د/ صلاح الدين عبد التواب ص ٣٣ ــ ٣٤ .

السلطة والفرس أول الدعاة إلى هذه الحركة الشعوبية إذ حقدوا على العرب سلطانهم وسيطرتهم على بلادهم ، كذلك فعل الأتراك .

أ) **الفرس** : شعُر الفرس بغلبة العنصر العربى على العنصر الفارسى صاحب الأمجاد التاريخية القديمة فأرادوا إحياء مجدهم فى ظل آل البيت النبوى الكريم وعلا شأن " أبو مسلم " وأصبح نفوذه واسعاً حتى دار بخاطر الخليفة " أبو جعفر المنصور" أن أبا مسلم قد يعمل على الاستقلال بأمر خرسان فاحتال عليه حتى قتله ؛ ولهذا السبب نكب الرشيد البرامكة إلا أنهم ظهروا على المسرح مرة ثانية فى عهد الخليفة "المأمون" وانتصر بهم على أخيه الأمين وحزبه العربى.

ب) الأتراك: وظل الأمر للفرس إلى أيام الخليفة المعتصم الذى استكثر من الأتراك فأدخل إلى جسم الدولة عنصراً آخر غريباً واتخذ منهم الجند والقوات واستنصر بهم على الفرس والعرب معاً مما زاد من متاعب الدولة حيث قوى شأنهم فصاروا حرباً على الخلافة وعجزت الدولة عن كبح جماحهم واستخفوا بالخلفاء خاصة بعد وفاة " المعتصم" فعزلوا الخليفة الذى لا يرضون عنه ، وقتلوا الذى يعترض أعمالهم وغدا الأتراك أصحاب الكلمة العليا فى الدولة.![1]

وإذا تتبعنا شعر هؤلاء الموالى وجدنا أكثره يذهب فى المديح ، حيث منزلتهم فى المجتمع متأخرة ، وهم فى حاجة إلى المال ، ومن ثم لزموا الخلفاء والأمراء والأجواد المشهورين يمدحونهم لينالوا عطاءهم ، وكان من الطبيعى أن يتسم شعرهم بتلك النزعة الشعوبية ، فهذا إسماعيل بن يسار يدخل على هشام بن عبد الملك أيام خلافته ، فيستنشده الخليفة ظناً منه أن يمدحه ، فإذا به ينشده قصيدته التى يفخر فيها بالفرس قومه ، ومنها قوله :

إني وجدك ما عودي بذي خور	عند الحفاظ ولاحوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدى لا يقاس به	ولى لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب	من كل قرم بتاج الملك معموم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا	وهم أذلوا ملوك الترك والروم

فغضب هشام وقال : " أعلى تفخر ، وإياى تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك ؟ " ثم أمر أن يرموه فى الماء ، فرموه وغطوه حتى كادت

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٠

نفسه تخرج ، ثم أمر بإخراجه ونفاه من وقته إلى الحجاز [1] .
وإسماعل بن يسار هذا هو القائل :

رُبَّ خالٍ متوج لى وعمٍ ... ما جد مجتدى كريم النصاب
إنما سُمى الفوارس بالفُرْ ... سِ مضاهاة رفعة الأنساب
فاتركى الفخر يا أمام علينا ... واتركى الجور وانطقى بالصواب
واسألى إن جهلت عنا وعنكم ... كيف كنا فى سالف الأحقاب
إذ نربى بناتنا وتدسو ... نَ سفاهاً بناتكم فى التراب

وواضح من هذا الشعر تلك النزعة الشعوبية التى كانت تضطرم فى نفوس العجم وبخاصة الفرس الذين يفخرون بأنفسهم ، بل حاولوا أن يرفعوا من شأن أنفسهم لتعلو مكانتهم على العرب متخذين من تاريخ العرب ومن بعض ما فيه من مفاسد فى جاهليتهم ذريعة ليصلوا من وراء ذلك إلى تحقيق مآربهم ، وهذا رد فعل طبيعى لموقف العرب منهم منذ البداية .

وعلى أية حال .. فإن شعر الموالى وبخاصة الفرس وإن تناول بعض الأغراض التى تصور الحياة الإجتماعية لتلك الفترة التى عاشوها فى ظلال الأمويين فإن هذا الشعر كان ينتهى فى معظمه إلى غاية واحدة هى الكسروية أو دولتهم التى أضاعها العرب ، ولا يوفرون لهم ما جاء به الإسلام من حق المساواة والإنصاف والعدالة الإجتماعية بوجه خاص ، لذلك نقموا على العرب , وأخذت هذه النقمة تنمو وتتسع حتى شملت فيما بعد الدين واللغة والجنس والحكومة والأدب .

أما من حيث مادة هذا الشعر ، فقد استطاع الشعراء الموالى أن يجمعوا فى شعرهم إلى حد ما بين ثقافتهم العربية وشىء من وراثتهم ومواهبهم الفارسية التى تلمح فى مثل القصص والرفق بالحيوان وطول النفس ، مع ملاحظة الأخطاء النحوية التى كانت تبدو فى شعرهم أحيانا كما فى قول زياد الأعجم :

إذا قلت قد أقبلت أدبرت ... كمن ليس غاد ولا رائح

وكان ينبغى أن يقول : غادياً ولا رائحاً .[2]

---

(١) الأغانى جـ٤ ص ١٢٠ وراجع تاريخ الشعر السياسى الأستاذ احمد الشايب ص ٢٢٤ .

(٢) راجع الحياةالأدبية في العصرين الأموي والعباسي الأول ص/ ٣٦ – ٣٩ .

الفصل الثالث

اتجاهات الشعر الأموي

(١) الشعر السياسي :

كان الشعر السياسي أبرز هذه الاتجاهات التي دفعت إليها دواعي مُلحـــة ؛ ولذا كان هذا الشعرالسياسي لسان الأحزاب المتصارعة ، ومن ذلك قـــول الكميت بن زيد الأسدي [١] فى بني هاشم :

طربت وما شوقاً إلى البيض أطربُ	ولالعباً مني وذو الشَّيب يلعــبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهـــى	وخير بني حواءَ والخيرُ يطلبُ[٢]
إلى النَّفر البيض الذيــن بحبهـــم	إلى الله فيما نالنـــى أتقـــرب[٣]
بني هاشمٍ رهط النبي فإننــــى	بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضتُ لهم مني جَناحـَي مــودة	إلى كنفٍ عِطفاه أهل ومرحب[٤]

(٢) وفى حزب الزبير نجد عبيد الله بن قيس الرقيات:[٥] يمدح مصعب بن الزبير ويفتخر لقريش كما سبق ذكره ص ١١٣ في هذا الكتاب .

---

(١) ولد فى الكوفة وقضى حياته فيها متصلا بعلمائها وأخذ عـــن الأعـــراب وبجـــانب شاعريته التى نبه فيها كان خطيبا بارعا .. وكان أحد الشعراء الذين خاضوا المعركـــة السياسية مع بنى هاشم منتصرا لهم ومؤيدا لأحقيتهم فى الخلافة وقد لقـــى فـــى ســـبيل مذهبه الشيعي والعدناني بلاءا كثيرا وتوفى / ١٢٦ هـــ راجـــع الحيـــاة الأدبيـــة فـــى العصريين الأموي والعباسي الأول المجلد الثاني ص ٤٢ ومابعده .

(٢) النهى جمع نهية : العقل

(٣) البيض كناية عن الأشراف المشهوريين ، فيما نالنى : أي فيما أصابني لحبي إياهم

(٤) الكنف : الناحية والظل ، العطفان : الجنبان تريد أحببتهم محبة يعمرهـــا التواضـــع فهم أهل لى أجد عندهم المكان الرحيب

(٥) من أبز شعراء قريش ولد بمكة وكان حريصاً على سيادة قريش نقم علـــى بنـــي أمية بسبب الخلافة ، وكان ينتصر لابن الزبير حتى إذا قتل واستقر الحكـــم للأمويـــين فاستشفع لدى عبد الملك بن مروان حتى عفا عنه وسافر إلى مصر ولزم واليهـــا عبـــد العزيز بن مروان إلى أن توفي / ٧٥ هـــ . وأكثر شعره فى السياسة والغزل وســـمى بابن قيس الرقيات لأنه تغزل فى ثلاث نساء ، كل منهن رقية – المرجع السابق ص ٥٠ وما بعده و الكامل للبرد جـــ٢ ص ٣٩٩ .

(٣) قطرى بن الفجاءة [١] يقول فى يوم "دولاب" بين الخوارج وأهل البصرة

أصيب بدولاب ولم تك موطنـــا   له أرض دولاب ودير حميـــم[٢]

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـــــا   تبيح من الكفار كل حريــــــم[٣]

رأيت فتية باعوا الإلـــه نفوسهـــم   بجنات عدن عنده ونعيـــــــم

(٤) والأخطل [٤] يقول فى عبد الملك بن مـــروان ، بعـد فتحـه العـراق وانتصاره على مصعب بن الزبير ، ويشير إلى ما قامت به بنو تغلب فـــى نصرة الأمويين ، فيقول :

خفَّ القطين فرحلوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير[٥]

إلى امرئ لا تعدِّينـــا نوافلـــه   أظفره اللـــه فليهنأ لـــه الظفر

الخائض الغمرة ، الميمون طائره   خليفة الله يستسقى به المطــر[٦]

مقدم مائتــي ألــف لمنزلـــــه   ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر [٧]

ثم استقــل بأثقال العراق وقـــد   كانت له نقمة فيهم ومدخـــر [٨]

---

(١) قطرى بن الفجاءة المازنى المالكى من زعماء الخوارج نشأ متأدباً بآداب الإســـلام مخلصاً لتعاليمه وكان يتسم بالشجاعة والجرأة بجانب ورعه وتقواه ، خرج أيام عبد الله بن الزبير يقاتل جند السلطان ونكل بجيوش الدولة ثم قتل بطبرستان / ٧٩ هـ وكـــان بجانب شاعريته خطيبا مفوهاً – راجع : مع الجاحظ وكتابة البيان والتبين د. صلاح عبد التواب والحياة الأدبية فى العصريين الأموي والعباسي الأول ص ٥٣ وما بعده

(٢) دير حميم موضع بالأهواز

(٣) المقصود بالكفار هنا أعداء الخوارج من المسلمين

(٤) أبومالك غياث بن غوث بن الصلت التغلبى الملقب بالأخطل كان أحظى الشـــعراء لدى الأمويين اتخذوه شاعرهم يناضل عنهم أعداءهم . وقد توفي أول خلافـــة الوليــد /١٢٥ هـ على المشهور .(راجع د. صلاح عبد التواب ص ٥٥ وما بعده)

(٥) القطين : القوم الذين يقيمون بالمكان . ويقصد : خفَّ الأحبة أي ارتحلوا

(٦) الغمرة : الشدة ويقصد الحرب . والميمون طائره : السعيد الحظ .

(٧) يريد مكان نزوله في العراق .

(٨) أي أنه يدخر لهم نقما وإذلالا فى المستقبل لذلك .

في نبعة من قريش يعصبون بهـا   ما إن يوازي بأعلى نبتها الشجر[1]

كان من الطبيعي إذاً أن يحتضن الأمويون شاعراً مثل الأخطل غير مبالين بمخالفته لهم فى العقيدة ما دام شعره درعاً لهم ، ومـادامت قبيلتـه (بنـو تغلب) تذود عنهم شرّ المتربصين بهم ، ولم لا يكون الأخطـل بحـق هـو شاعرهم ، وهوالذي يقول فيهم :

بني أمية قـد ناضلـت دونكـم   أبناء قومي هم آووا وهم نصروا[2]

أفحمت عنكم بني النّجار قد علمتْ   عُليا معد وكانوا طالما هـذروا [3]

حتى استكانوا وهم مني على مضض   والقولُ ينفذ ما لا تنفـذ الإبـرُ

وقد نُصرتَ أمير المؤمنين بنـا   لما أتاك ببطن الغوطـة الخبر

وهذه القصيدة بعد هذا تلقي الضوء على أهم الخصائص الفنيـة لشـعره ، حيث الدقة فى اختيار الألفاظ والتراكيب ، وصقل العبارات وترتيب الأفكار وهكذا استحق أن يكون شاعر الدولة في ظل الأمويين .

وبعد : فهذه نماذج للشعر السياسي تباينت فى اتجاهاتها السياسية والمذهبية إلا إنها أبزرت لنا لوناً من الشعر اتضح فيـه مـدى الصـراع السياسـي والحزبي الذى اتّسم به العصر ، فكان وثيقة تاريخية في إطار فني جميل ، يعبِّر تمام التعبير عما يكنه الشاعر من حب الأمويين أو عن بغضه الشـديد لهم ولمن يواليهم .. نعم هو تعبير عن الاتجاهات الحزبية والعقيديـة التـي تباينت بشكل واضح في هذا العصر .

******

---

(١) النبع : شجر للقسي والسهام ويريد به الأصل ويعصبون بها أي يجتمعون حولها ، يوازي : يسامي .

(٢) يقصد الأنصار ويشير إلى هجائه لهم في قوله ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الأنصار

(٣) أفحمت : أسكت ، وبنو النجار قوم من الأنصار منهم حسان الشاعر ، عليـا معـد يريد بنى قريش ، هذروا : أكثروا من الكلام .

(٢) شعراء النقائض :

قد لقي هذا الاتجاه رواجاً فى العصر الأموي لأنها تصــور جانبـا[١] مــن جوانب الحياة الأدبية والاجتماعية والسياسية ، فشعرالنقائض يعكس العوامل التي ساعدت على نموه ورواجه فى المجتمع الأموي وتتمثل تلك العوامــل فى كل من الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها الدولة ثــم فــي العصبيات التى استعرت نيرانها واحتدمت بين أهل القبائل المختلفة و أخيراً فى تلك المنافسات الأدبية التي أثارها خلفاء وأدباء العصر بين الشــعراء ، الأمر الذى جعل الشعراء يتحمسون لمقدرتهم الشعرية وإبراز مواهبهم الفنية وعلى أية حال فإن هذا الاتجاه وإن كان جناية على الأخلاق والأعــراض والدين إلا أنه مصدرتاريخي لحياة العرب ، كما أنه يمثل مدرسة أدبية لهــا طابعها ولونها وأخيراً فلقد كان لهذا الشعر — الذي تناوله فحول الشعراء — فضله فى الحفاظ على اللغة من الضياع ، فالأخطل مثلاً يفضل الفــرزدق على جرير ، فيقول :

قَبَحَ الإلهُ بنى كليب إنهـم لايحفظون محارم الجيران [٢]

أجرير إنك والذي تسمو له كأسيفة فخرت بحدج حصان[٣]

حمات لربتها فلما عوليــت نسلت تعارضها مع الأضغان[٤]

تاج الملوك وفخرهم فى دارم أيام يربوع مع الرعيــان [٥]

---

(١) راجع د. صلاح عبد التواب ص ٦٨ وما بعده

(٢) بنو كليب : رهط جرير ، محارم : جمع محرمه وهو ما لا يحل انتهاكه .

(٣) تسمو لهم تتعلق به من مفاخرليست لك ، والأسيفة : الأمة ، الحدج : مركب النساء على البعيركاهودج ، والحصان الحرة ضد الأمة ، يريد أن فخرك بما ليس لك كفخــر الأمة بحدج سيدتها .

(٤) حملت لربتها أي حملت حدج سيدتها وعوليت : أي علت الحدج ، نسلت أسرعت ، تعارضها : تعلو حيالها ، الأضغان : النساء فى الهودج

(٥) دارم رهط الفرزدق ، والرعيان جمع راع ، وهو الذي يقوم على الماشية يخدمها والأخطل يريد بذلك تفضيل الفرزدق وقومه على جرير وقومه .

وهذا رد جرير يهجو الأخطل ، فيقول :

لمن الديارُ ببُرقة الروحـــــانِ   إذ لا نبيع زماننا بزمـــــانِ [1]

وإذا لقيتَ على زرودَ مجاشعاً   تركوا زرودَ خبيثة الأعطـــان[2]

قتلوا الزبير وقيل إن مجاشعاً   شهدوا بجمع ضياطرٍ عزلان[3]

كذب الأخيطل إن قومي فيهمُ   تاج الملوك وراية النعمـــان[4]

منهم عتيبة والمحل وقعنب   والحنتفان ومنهمُ الردفـــان[5]

إلى أن يقول :[6]

ولقد سبقت فما ورائي لاحق   بدءاً وخلّى في الجراء عناني[7]

قل للمعرِّض والمشورِ نفسَهُ   من شاء قاسَ عنانه بعنانـــي [8]

ولعله اتضح لنا كيف تحوَّل الهجاء في القديم إلى شعر النقائض في زمـــن الأمويين وصوَّر الهجاء الحياة القبلية حينذاك .

---

(١) البرقة : الأرض الغليظة وبرق بلاد العرب كثيرة منها برقة الروحان أي لمن هذه الديار بتلك البرقة حيث قضينا زمننا لانبغي به سواه والاستفهام للتعظيم

(٢) زرود : مكان فيه يومٌ بين تغلب ويربوع ، والأعطان جمع عطن موطـــن الإبـل ومبركها حول الحوض ومجاشع قبيلة الفرزدق .

(٣) كان الزبير جاراً لمجاشعي ، ولم يُجره ، وذلك بعد وقعة الجمـــل ، ضيـاطر أي ضخام ، لئام والمفرد ضيطر ، وعزلان جمع أعزل أي المجردون من السلاح .

(٤) تاج الملوك : يقصد أن الخفة كانت في قوم مضر إذ ذاك ، راية النعمان في القديم لأنهم أسروا قابوس بن المنذر .

(٥) كل هؤلاء يفخر بهم جرير لأنهم رهطه من يربوع

(٦) شرح ديوان جرير ص ٤٣١ وما بعدها .

(٧) بدء : أول الأمر أي منذ بدأ السباق ، والعنان : سير الجام، وترك العنـــان يكـون للفـرس غير الصعب معتاد السباق ، ويصف الشاعر نفسه باعتياد المفاخرة والفوز فيها

(٨) المشور : المروض المختبر .. أي من شاء مفاخرتي بالمجد تقدم ليرى مكانته

(٣) الاتجاه الإباحي القصصي :

تكاتفت مجموعة من العوامل ، غيَّرت من طبيعة المجتمع فيهما ، وبالتـــالى ساعدت على تنمية هذا الاتجاه من التغزل ، وهى كثيرة متشـــابكة ، منهــا الغنى والثراء الذى عمّ ، نتيجة تدفق ثروات الفئ والغنائم ، وأموال الخراج أيام الخلفاء ، ثم العطاء الذى أجراه الأمويون ، وانضم إلى ذلـــك ، تدفــق السبايا والموالي ، وبخاصة من الفرس ، واختلاطهم بـــالمجتمع العربـــي ، وذلك بعد أن اتسعت موجة الفتوح . وقد أثر هذان العاملان ، فى المجتمـــع المكي والمدني ، فغيَّرا من طبيعته ، إذ هيأ له بعض مظـــاهر التحضـــر ، وجعلاه ينغمس فى أنواع الترف والنعيم ، فعاش أبناء هـــذا المجتمـــع فـــى القصور ، ونعم مطعمهم ، ورق ملبسهم ، حتى إن بعضهم أكل فى صحاف الذهب والفضة ، ولبس الخز والديباج ، والملون والمدرج [١] وأضيف إلـــى هذين عامل آخر ، هو الفراغ الذي عاش فيه أبناء هذا المجتمع في العصر الأموي ، حتى شمل الموالي والسبايا ، فكفوهم مئونة العمـــل والخدمـــة ، مثلما كفاهم الثراء المتدفق ، الكدَّ فى سبيل العيش ، فاحتواهم فراغ هـــائل ، وبهذا اجتمع عليهم ثراء ، ونعيم وفراغ . وكان لابد من شغل هذا الفـــراغ وقتله ، فقتله بعضهم بالعبادة والعلم ، وشغله بعضهم الآخـــر بـــاللهو فـــى مجالس الغناء والطرب والنوادر ؛ ولهذا ظهر فى تلـــك البيئـــة أشـــعب [٢] صاحب النوادر ، ووجد ابن سريح [٣] والغريض [٤] .

وشعراء هذا الاتجاه – أحيانا يبلغون فى بعـــض قصـــائدهم حـــدَّ القصـــة وبخاصة عمر بن أبى ربيعة ، وأحيانا وهو الغالب ، يبلغون حدَّ الحوار فقط وربما كان خير مثال لهذا الاتجاه رائية عمر ، التي تعدُّ مثالاً لطريقته فـــى

---

(١) الشعر الغنائى فى الامصار الاسلامية ص ٣٥ .

(٢) الأغاني ١٩ / ١٣٤ – ١٨٢ .

(٣) الأغاني ٢٤٨/١

(٤) الأغاني ٢/ ٣٥٩

الشعر والتغزل ، وقد بلغت هذه القصيدة حد القصة ، ففيها حـــدث وعقـــدة وانفراج وحوار ، وقد بلغت ثمانين بيتا وقد سبق أن عرضنا لمطلعها فـــي محبوبته نعم ص١٢٠ ، ثم يقول في محبوبة أخرى :

وأخرى أتتْ من دونِ نُعم ومثلها   نهي ذا النُهى لو ترعوي أو تفكر

إذا زرت نعماً لم يزل ذو قرابـــة   لها كلما لا قيتهـــا يتنمَّـــــرُ

ألكنى إليهـــا بالســـــلام فإنه   يُشهر إلمامي بهـــــا وينكــــَّر

بآيـــــة ما قالت غـــداة لقيتهـــا   بمدفع أكنان : أهـــذا المشهــــر

قفى فأنظرى أسماء هل تعرفينه   أهذا المغيرى الذى كـــان يـــذكر

أهذا الذي أطريت نعتا فلم أكن   وعيشـــك أنســـاه إلـــى يوم أقبر

******

(٤) الشعر العذري :ـ هذا النوع الثانى من التغزل ، وينتسب هذا اللون من الحب العذري إلى بني عذرة ، وهى قبيلة بدوية من بني قضاعة ، قد وجد الغزل العذري فى البادية في العصر الأموي ؛ لأن الحجاز كان بعيداً عـــن مسرح الأحداث بعد أن فشل في محاولته استرداد مكانته السياسية منـــذ أن نقلت عاصمة الخلافة إلى دمشق ، واتجه شبآب البادية إلى الغـــزل العـفٍ لغلبة التقاليد العربية عليهم ، ولتمكن الخلق الإسلامي فيهم [1] بينما انصرف أكثر شعراء المدن إلى حياة اللهو والترف بعد أن أغدق عليهم خلفاء بنـــي أمية الأموال وسلطوا عليهم الفراغ والغنى ليصرفوهم عن شئون الخلافـــة وسياسة الدولة ، فلما شرقوا بالنعيم وأتخموا بالطرف انصرفوا إلى مجالس الغناء وتتبع النساء والتعرض لهن فى كل مكان ... وإذا كان الغزل الحسي

---

(١) راجع الحياة الأدبية فى العصرين الأموي والعباسي الأول عن ليلى والمجنون فـــى الأدبي العربي والفارسي ص ٦ – ٥٨ محمد غنيم هلال النقد الأدبي الحديث ص ٢١٩ ومحاضرات فى الأدب د. عبد الحميد المسلوت ص ١٠٩

أو الجسدي يلتفت إلى الناحية الحسّية فى المرأة ، والإباحية فــى الحــب ، ويتعدد المحبوب عند صاحبه ، وينتقل من زهرة إلى زهرة كالفراشة ؛ لأن الباعث عليه هو الغريزة ، فإن النوع الثانى يهتم بالناحية الروحية فى المرأة وبالعفة فى الحب ، فصاحبه يوقف حبَّه وحياته على زهرة واحدة ؛ يتسامى فيه على مطالب الجسد ؛ لأن الباعث عليه هو صــدق العاطفــة وصــدق التعبير، وهو في الغالب " يأخذ شكل مأساة حزينة ، بدايتها أمــل ونهايتهــا يأس وتدور أحداثها بين عاشقين ، تسيطر على حبهما العفــة والإخــلاص والتوحُّد والحرمان [1] .

وكانت تعاليم الدين من أقوى العوامل فى التسامي بفن الغــزل فــى الأدب العربي لدى العذريين حيث خلق إدراكاً جديداً للعاطفة فيما دعا إليــه مــن جهاد النفس ومقاومة الهوى ، وفيما هيأ لروح الزهد بتهوينه من شان الدنيا وكانت مقاومة النفس للهوى أكبر ظاهرة تجلّى فيها زهد هــؤلاء الغزليين حتى كان بعضهم من الزهاد الأتقياء ، فهذا عبد الرحمن بــن أبــى عمــار الشهير بالقسِّ ، وكان من أعبد أهل مكة قد هام بسلامة المغنية ، قالت لــه يوماً : أنا أحبك ، فقال وأنا والله أحبك ، قالت وأشتهي أن أعــانقك ، قــال وأنا والله ، قالت وما يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخالٍ قال : إنى ســمعت الله عزَّ وجل يقول " الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين " وأنــا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تئول إلى عداوة ...[2] كمــا روى عــن عروة بن حزام وكان من أوائل الذين تأثروا بالإسلام وقد وفد علــى زوج حبيبته عفراء بالشام فأكرمه وأحسن مثواه وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان فلما خلوا تشاكيا .. فطالت الشكوى وهو يبكى أحرَّ بكاء ثم أتتــه بشــراب وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل جوفي حرام قط ولا ارتكبته منــذ كنت ، ولواستحللت حراماً لكنتُ قد استحللته منك فأنتِ حظِّى من الدنيا ..

---

(١) الحب المثالي عند العرب ص ٤٨ .

(٢) راجع الحب عند الفقهاء د. محمد حامد شريف ٧٧ ط/١٩٩٠م

وقد فضّلت سكينة بنت الحسين جميلاً على جرير والفرزدق وكثير ، قائلة في تعليلها لذلك التفضيل : " إنه جعل حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء تشير إلى قول جميل [1]

لكل حديث عندهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد

يقولون جاهد يا جميلُ بغزوةٍ ... وأيَّ جهادٍ غيرهنَّ أريدُ

الخصائص الفنية للشعر :

تبين لنا أن هناك تيارات ثلاثة مؤثرة فى هذا العصر ، تيار من الجاهلية يحمل مؤثرات تتمثل فى اللغة والشعر وتيار آخر يحمل معه آثار الحضارات السابقة من فارسية ويونانية وغيرهما وقد أثر ذلك على الشكل والمضمون بنسب متفاوته كما تأثر المديح والهجاء والفخر وتيار ثالث إسلامي اتضح في مضمون الأبيات التي تحث على الزهد أو فى لون النفس على تماديها في الغواية وظهر أيضا تأثير الحضارات الأخرى في الشعر الذي يعكس بعض أراء الغلاة من أصحاب الفرق التي تأثرت بالعقائد والفلسفات السابقة على الإسلام وهذه التيارات الثلاثة أثرت في اللفظ والمعنى أو في الشكل والمضمون الشعري بنسب مختلفة ، بما فيها من خصائص لفظية وصوتية وموسيقية وما تحمل من معاني وظلال عبر العصور وألفاظ اللغة منها ما يحمل ظلالا موروثة ومنها ما يحمل دلالات إسلامية ومنها ما يحمل مدلولات الحضارة الجديدة وقد استعملها الشعراء كل بحسب طبيعته وثقافته فالشاعر البدوي تغلب على ألفاظه البادية والبيئة القديمة أما الشعراء الذين اتصلوا بالبلاد المفتوحة واندمجوا في شعوبها عرفوا أنواعا من الثياب وألونا من الطعام وأنواعا من الجواهر والحلي وقد عربوا ألفاظا ظهرت على ألسنة بعض الشعراء أما تأثير الإسلام فقد سبقت افشارة إليه كثيرا فى الألفاظ والمعانى والصور والأخيلة .

---

(1) راجع الحياة الأدبية في العصرين الأموي والعباسي الأول ص ٨٥ – ٨٧ ، الحب عند الفقهاء د. محمد حامد شريف ص٢١ .

الفصل الرابع

النـــَّثر الفنِّي

في عصر بني أمية

ازدهر النثر الفنى فى هذا العصر ازدهاراً عظيماً وخاصة فن الخطابة والرسالة، وقد عملت فى هذا الازدهار وهيّأت له أسباب مختلفة منها السياسى ومنها الدينى ومنها العقلى، أما من حيث السياسة فقد كثرت الأحزاب السياسية المعارضة لبنى أمية وكثر مشعلو الفتن والحروب الداخلية، ومعروف أن الدولة الأموية قامت على أنقاض فتنة عثمان، وما انتهت إليه من حروب بين على ومعاوية، وبمجرد أن قبل علىّ التحكيم خرج عليه فريق من جيشه سمى الخوارج وشهروا سيوفهم فى وجهه وعبثاً حاول العودة بهم إلى صفوفه فحاربهم وتصدى له أحدهم وقتله، وخلص الأمر لمعاوية وخلفائة من بنى أمية فظل هؤلاء الخوارج ينازلونهم ويعدون دار المسلمين دار حرب، فيجب أن يجاهدوهم إذ جعلوا الخلافة فى قريش وهى ليست حقاً من حقوقها، وإنما هى حق الله، وينبغى أن يليها من يستحقها بمشورة المسلمين، وأن يكون خيرهم تقوى وزهداً وورعاً، ولو لم يكن قرشياً، بل لو كان عبداً حبشياً، وقد تعددت فرقهم وأهمها الأزارقة فى فارس والنجدات فى اليمامة وحضرموت والبحرين، والصفرية فى الموصل وشمالى العراق والأباضية فى اليمن وحضرموت.

وبجانب الحزبين السابقين، حزبى الشيعة والخوارج توالت الثورات على بنى أمية، فثار عبدالله بن الزبير فى الحجاز أثناء خلافة يزيد، واستقل بها نحو عشر سنوات، وتبعته العراق ومصر إلا أن عبدالملك بن مروان استطاع القضاء عليه، وثار فى العراق وإيران عبدالرحمن بن الأشعث

وهذه الأحزاب والثورات لم تكن تستعين فى انتفاضها على الأمويين بالسيوف فحسب، بل كانت تستعين بالخطب والخطباء يدعون لها ويحمسون الناس على الانفضاض عن بنى أمية، ومن المهم أن نعرف أن السياسة على ألسنة هؤلاء الخطباء كانت تقترن بالدين لسبب بسيط، وهو أن الخليفة عند المسلمين يعد إمامهم التى تنتظم به مصالحهم وقواعد ملتهم على مقتضى الشريعة الإسلامية.

الخطابة :

زدهرت الخطابة في العصر الأموي ، لوجود العوامل الباعثة على ذلــك ، . فقد وُسم ذلك العصر بألوان الصراع ، سواء أكان سياسياً ، أم اجتماعياً ، أم فكرياً وعقدياً ، بل بحدّة ذلك الصراع ، مما أدى إلى الفتــن والثــورات والمعارك المختلفة . وقد حاول كل فريق فى صراعه كســب الأنصــار ، ببيان حجتة ، وقوة منطقه ، وتوضيح مبادئه وأفكاره ، وإثارة المشــاعر ، وتهييج العواطف لصالحه ، وكان زعماء الفرق والأحزاب يدخلــون فــى مجادلات ومناظرات ، معتمدين على ما أوتوا من فصاحة ، وقوة بيان .

أنواع الخطابة :

تنقسم الخطابة باعتبار ما تهدف إليه ، أوباعتبار موضوعاتها ، إلى خطابــة سياسية ، ، ودينية وحماسية ، واجتماعية .

١ – الخطابة السياسية :

وهى لسان حال الأحزاب التى كانت تتصارع على الخلافــة أو بســببها ، وكما لكل حزب شعراؤه ، كان لكل حزب خطباؤه المفوّهون ، يدافعون عنه ويحاولون النيل من خصومه ، وكان زعماء الأحزاب ، وزعمــاء الفتــن والثورات أنفسهم ، من أبلغ الخطباء ، فهم من خـيرة فصحــاء العــرب ، بلاغة ومقدرة على التعبير ، وقد ساعد على ازدهار ، هــذا اللــون مــن الخطابة ، شدة الصراع ، الذى كان بين الأحزاب ، وكثرة الفتن والثورات ، فحدة الصراع أدت إلى القتال بالسلاح وبالكلمة ، قام فيه الشــعر ببعــض العبء ، وقامت الخطابة بمعظمه . وكل حزب حاول عن طريق الخطابــة توضيح حجته ، وبيان مدى أحقيته بالقيادة ، وأنه هو الذي يسير في طريق الصواب ، محاولاً التأثير بما يتفق وطبيعته ومبادئه .

فالحزب الأموي ، باعتباره الحزب الحاكم . صاحب السلطة والقوة ، كــان خطباؤه يهددون ويتوعدون العاصين ، الممالئين لهم ، ويعــدون ويمنــون المناصرين ، ويتضح ذلك فى خطبة زياد بن أبيه ، المســماة بــالبتراء ،

ففيها يوضح أحقية الأمويين في الخلافة ، التي أعطاهم الله إياها ، ثم يعد ويتوعد، فيقول :

" أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاءً ورزقاً عن إبانة ، ولا مجمراً لكم بعثاً ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم : فإنهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي إليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا به حاجتكم ؛ مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم .

أسأل الله أن يعين كلا على كل ، وإذا رأيتمونى أنفذ فيكم الأمر فانفذوه على إذلاله . وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة ؛ فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى [1]

وشبيه بذلك خطبة الحجاج ؛ فى أهل العراق : وإن كان الوعيد والتهديد غطّى فيها على الوعد ، ولا عجب فهما يتحركان من موقف واحد ؛ وينطقان بلسان واحد .

الخوارج : ويبين أبو حمزة المختار وهو أحد زعماء الخوارج – فى خطبة له على منبر المدينة – أهم مبادئ الخوارج ، وهو حق الاختيار الحر ، للخليفة من المسلمين ، ويهاجم الأمويين وولاتهم ، ويتهمهم باستحلال المال الحرام والفرج الحرام ، ويهاجم أهل المدينة ؛ لأنهم لم ينصروا الخوارج .

وقد اتبع فيها طريق الحجاج المنطقي ؛ فى صورة سؤال وجواب :

" يا أهل المدينة ؛ سألناكم عن ولاتكم هؤلاء ، فأسأتم – لعمر الله – فيهم القول ، وسألناكم : هل يقتلون بالظن ؟ فقلتم : نعم ، وسألناكم : هل

(١) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى ص / ٢٣٠ ، عن البيان والتبيين

يستحلون المال الحرام والفرج الحرام ؟ فقلتم : نعم / فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم ، فنناشدهم الله أن يتنحوا عنّا وعنكم ليختار المسلمون لأنفسهم فقلتم : لاتفعلون ، فقلنا لكم : تعالوا نحن وأنتم نلقاهم ، فإن نظهر نحن وأنتم نـــأت بمن يقيم فينا كتاب الله وسنة نبيه ، وإن نظفر نعدل فى أحكامكم ، ونحملكم على سنة نبيكم ، ونقسم فيئكم بينكم ، فأبيتم وقاتلتمونا دونهم ، فقاتلنـــاكم ، فأبعدكم الله وأسحقكم . يا أهل المدينة ، مررت بكم فى زمان هشام ابـــن عبد الملك ، وقد أصابتكم عاهة فى ثماركم ، فركبتم إليه تسألونه : أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب بوضعها عنكم ، فزاد الغنى غنىً ، وزاد الفقير فقراً ، فقلتم : جزكم الله خيرا ، فلا جزاه الله خيراً ولا جزاكم (١)

حزب الشيعة : وقد كان لهم ثأر عند الأمويين ، خاصة بعد مقتل الحســين ــ رضى الله عنه ــ وها هو ذا المختار الثقفى ، الذى خرج ليـــأخذ بثــأر الحسين ، يقول فى إحدى خطبه ، ملتزماً السجع :

" أما ورب البحار والنخيل والأشجار ، والمهامة والقفار ، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار ، لأقتلنَّ كل جبار ، بكل لدْن خطَّار ، ومهند بتار ، فى جموع من الأنصار ليسوا بميل أغمار ولا بعــزل أشرار ، حتى إذا أقمــت عمود الدين ، ورأيت شعب صدع المســلمين ، وشــفيت غليــل صــدور المؤمنين ، وأدركت بثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولـــم أحفــل بالموت إذا أتى (٢) " .

٢ـ الخطابة الحماسية :

وهى الخطابة التى توجَّه إلى الجند والمقاتلين ، وإلى الجماعــة الثــائرين ، تحميساً لهم وتوجيهاً قبل الدخول فى المعركة ، واشتعال القتال . وهى فـــى الغالب تدور حول الترغيب فى الجهاد لإعلاء كلمة الله ، والحـــث علـــى الاستبسال فى القتال ، وطلب الشهادة فى سبيل الله ، والتخويف من الفرار

---

(١) الأغاني : ٢٣/٢٣٧

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٢٨ ، عن الطبري

والهزيمة ، وسوء الذكر والعار الذى يلحقهم – إن هم صدقوا فى القتـــال – وبالنصر وما يتبعه من حسن الذكر والغنيمة فى الدنيا ، وحسن الجزاء فى الآخرة ، وقد يذكّرهم بما فى القرآن من آيات تحض على الجهـــاد وعلـــى الصبر فى القتال ، وتبين فضل الاستشهاد ، ومكانة الشهداء عنـــد اللـــه ، ومكانهم فى جنة الخلد .

٣ـ الخطابة الدينية :

وهى التى تكون فى خدمة الدين وتعاليمه ، وتحثُّ على التمسك بمبادئـــه ، والقيام بواجباته وعلى السلوك السوى ، فى الطريـــق المســـتقيم ، طريـــق الإسلام . وقد نمت هذه الخطابة فى أحضان الدعوه الإسلامية ، وأصبحت ركناً من أركان صلاة الجمعة ، وازدادت نمواً فى العصر الأموى إذ بجانب خطب الجمع والأعياد قام القصاص والوعاظ بألوان من الخطابة الوعظية ، وقد ساعد على ازدهارها تطور العصر ، وظهور ألـــوان مـــن المجـــون والانحراف عن تعاليم الإسلام ؛ مما اقتضى قيام بعض العباد والعلماء عن طريق الخطابة والقصص الوعظي ، والدعوة إلى الرجوع عما هم فيـــه ، وحث الناس على الزهد والتقوى والتحذير من الانخداع بشهوات الدنيا ، وما فيها ؛ لأنها فانية والموت يهدد كل إنسان ، مـــع التذكـــير بيـــوم الحســـاب والعقاب كل ذلك – لمَّا رأو من سيطرة الحيا ة المادية عليهم –

وهناك ناحية أخرى ، هى اختلاط الخطابة الدينية بالخطابـــة السياســـية ، والخطابة الحماسية ؛ وذلك لأن الدين فى تلك الحقبة ؛ كانت لـــه الســـيطرة الكبرى على المجتمع ؛ فزعماء الأحزاب السياسية ، وأصحاب الفرق الدينية وقادة الثورات والفتوح ، كانوا يستغلون هذا العمل الديني فى التأثير علـــى نفوس المخاطبين ، ويعزفون على أوتاره ، ويتضح ذلك أكثر ما يتضح عند أحزاب المعارضة ، وبخاصة الخوارج .

وقد كثر الخطباء الدينيون فى ذلك العصر ، فكان فـــى العـــراق الحســـن البصرى وواصل بن عطاء ويزيد بن أبَّان الرقاشى ، وفى الشام كان غيلان

والأوزاعي [1] . ومما لاشك فيه أن أهم خطيب ديني ظهر فى ذلك العصر بعيداً عن السياسة ، هو الحسن البصرى . وكانت خطبه تقوم فـــى الغـــالب عى تذكير الناس بالآخرة وتخويفهم من عذاب الله ، وعلى الدعـــــوة إلـــى الزهد فى الدنيا الزائلة ، وإلى مجاهدة النفس وأهوائها ؛ وإلا فالويل للعاصى من العذاب الذى ينتظره [2] . ومن مواعظه قوله : " يـــا آدم ، بـــع دنيـــاك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولاتبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا . يا ابــــن آدم ، إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشــــر فـــلا تغبطهم به . الثواء هنا هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخـــر الأمـــم وأنتم آخر أمتكم ، وقد عُجل بخياركم ، فمـــاذا تنتظـــرون ؟ المعاينـــة ؟ .. هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحالها ، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بنـــى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة أما أنه والله لا أمـــة بعـــد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم ، أنتم تســـــوقون النـــاس والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم " [3]

المناظرات :

وبجانب الخطابة كان بعض زعماء الأحـــزاب ، وبخاصـــة الخـــوارج ، يدخلون فى مناظرات ، مع الأحزاب الأخرى ، ومن ذلك مناظرتهم لعبـــد الله بن الزبير ، فقد سالوه رأيه فى الشيخين : أبى بكر وعمر ، وفى عثمان بعد أن آثر أسرته بفيء المسلمين ، وفى علي بعد قبوله التحكيـــم ، وفـــى الزبير أبى عبد الله وصاحبه وخروجهما على " علـــي " بعـــد أن بايعـــاه والمعروف أن رأى الخوارج فى هؤلاء ، ما عدا الشيخين ، أنهـــم كفـــار ؛ ولهذا طلبوا منه التوبة مما كان يعتقد فى إيمان من كفروهم ، فأجـــابهم : " إن الله أمر – وله العزة والقدرة – فى مخاطبة أكفر الكـــافرين ، وأعتـــى العتاة ، بأرأف من هذا القول ؛ فقال لموسى ولأخيه ، صلى الله عليهمـــا ،

---

(١) الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٣

(٢) الخطابة العربية فى عصرها الذهبى ص ٣٥٤ ، ٣٥٥

(٣) البيان والتبيين ٣/ ١٣٢ .

فى فرعون : " فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، وقال رسول اللـــه صلى الله عليه وسلم: لا تؤذوا الأحياء بسبب الموتى : فنهىعن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ، والمقيم علـــى الشرك ، والجاد فى المحاربة ، والمتبغض إلى رسول الله صلى اللـــه عليـه وسلم قبل الهجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً . وقـــد كـــان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتـــبرأ مـــن الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهـــم لـــم تحفظونى بسب أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون أن الله عز وجل قال للمؤمـــن فى أبويه . " وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تُطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا " وقال جل ثناؤه . " وقولوا للناس حســـنا " ، وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده .. " [1]

خصائص أدبية عامة للخطابة والمناظرات :

لقد عنى الخطباء الأمويون – بصفة عامة – بخطبهم ومنـــاظراتهم عنايـــة كبيرة إلى جانب فصاحتهم العربية ، وبلاغتهم الفطرية ، فكـــانوا ينتقـــون ألفاظها ويجودون عبارتها ، ويتوخون الدقة فى اختيـــار معانيهـــا وانتقـــاء أفكارها حتى يكون لها التأثير الذى يريدون ، كما كانوا يدمجون فيها أحيانا ألونا من البديع .

ومهما يكن من أمرفإن الخطابة والمناظرات فى عهد بني أمية قـــد خطـــت خطوات واسعة فى سبيل النهوض والازدهار ، وقد هيأت لرقيها ونهوضها تلك الأسباب التي مرت سابقا على اختـــلاف أنواعهـــا (سياســـية ودينيـــة واجتماعية) ومن هنا لم يكن غريبا أن تحتل الخطابة الأموية المكـــان الأول من الفنون النثرية الأخرى ، ولم يكن غريبا أيضا أن يصف المؤرخون هذا العهد بأنه عهد الخطابة .!

---

(١) الكامل ١٢٢/٢

الكتابةُ والتّدوين :

لعل من أهم الأسباب التى هيأت لرقى الكتابة الفنية فى عهد بنى أمية تعريب الدواوين فى البلاد المختلفة، فقد كان يلى أمر هذه الدواوين فى بادىء الأمر كُتاب من الموالى، ففى فارس والعراق كانت تكتب بالفارسية، وفى الشام بالرومية، وفى مصر باليونانية ولقد تمت حركة التعريب هذه فى خلافة عبد الملك بن مروان ثم من بعده الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، ولقد حذق كثير من الموالى الذين كانوا يعملون بهذه الدواوين اللغة العربية وأجادوها فكتبوا بها بعد أن طعمت بأساليبهم وأفكارهم ومناهجهم، وكان لهذا أثره البالغ فى تطوير الكتابة العربية حتى إنها قد أصبحت فى العصور العباسية المتأخرة كتابة فارسية فى إطار عربى، ولعل من أبرز الكُتاب الموالى الذين كان لهم أثر فى تطور الكتابة العربية، سالم مولى هشام بن عبد الملك الذى استعمله على ديوانه، وكان سالم يتقن اليونانية ونقل عنها إلى العربية بضع رسائل لآرسطو(٢)، وهذا تيار يونانى أسهم مع التيار الفارسى فى بناء الحياة الأدبية والعقلية العربية بناء جديداً، وذلك مع ظهور ديوان الرسائل.

أيضاً من الأسباب التى أدت لرقى الكتابة وبخاصة السياسية أن كثيراً ممن كانوا يكتبونها كانوا يعدون فى الذروة من الفصاحة والبيان لهذا العصر أمثال زيادة والحجاج وقطرى بن الفجاءة والمختارة الثقفى.

وقد كان من بين الدواعى التى أدت إلى ازدهار الكتابة هو الحاجة إلى فهم كتاب الله أو التطلع إلى جمع السنة وتوثيقها، وذلك أن تأويل القرآن يقتضى ممن يتصدى له معرفة أسباب نزول الآيات وملابساتها

وهذه المعرفة بدورها تستلزم نوعاً من التأصيل التاريخى، كما أن العناية بجمع السنة وتدوينها هى فى أساسها عملية كتابية، بالإضافة إلى أنها توفر طائفة لا بأس بها من الأحاديث التى تتناول حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته ومعايش أصحابه وسيرهم ومن هذه وتلك تكونت بواكير كتب السير والمغازى والطبقات وجميعها مدونات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتطور الكتابة والنثر العربى على وجه العموم.

كذلك كان من دواعى الكتابة الأدبية تحول النظام السياسى فى الإسلام من خلافة تنهض على محورى الشورى والديمقراطية فى عهد الراشدين إلى ملكية وراثية تنهض على محورى الوراثة وولاية العهد فى عصر الأمويين وقد أفضى بالخلفاء وأولى الأمر إلى التماس القدوة فيما يقع إليهم من أخبار الملوك الماضين وسيرهم وفيما يتسنى لهم من أطور الأمم الأجنبية وأحوالها فى الحكم والسياسة.

وكان لكثرة الفرق والمذاهب وتعددها فى ذلك العصر ونشوب الحروب بينها وخاصة بين الخوارج بفرقها الأربع: الأزارقة والنجدية والصفرية والأباضية وبنى أمية وكذلك الشيعة، وظل بنى أمية يوجهون الجيوش إليهم وخاصة ولاة العراق وواليها الحجاج وكان زعيمهم لعهده قطرى بن الفجاءة ونرى الحجاج يراسله مهدداً متوعداً ويرد عليه قطرى بنفس الصورة من التهديد والتوعد، ونحن نسوق رسالتين[1] لهما تصوران كيف كان يتراسل الولاة مع الثائرين من خوارج وغير خوارج، أما رسالة الحجاج فتجرى على هذا النمط: «سلام عليك أما بعد، فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حيث تجرثمت[2] ذاك إنك

(١) البيان والتبيين جـ٢/ ٣١٠، الكامل لمبرد صـ٢١٤.
(٢) تجرثمت الشيء: أخذت معظمه.

عاصٍ لله ولولاة أمره، غير أنك أعرابى جلف أمى تستطعم الكسرة وتستشفى بالتمرة والأمور عليك حسرة، خرجت لتنال شبعة فلحق به طغام صلوا بما صليت من العيش فهم يهزون الرماح، ويستنشئون الرياح على خوف وجهد من أمورهم، وما أصبحوا ينتظرون أعظم ما جهلوا معرفته، ثم أهلكهم الله بنزحتين والسلام. وأجابه قطرى:

سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نقمه، فالحمد لله على ما أظهر من دينه، وأظلع بن أهل السفال[1] وهدى به من الضلال ونصر به عند استخفافك بحقه، كتبت إلىَّ تذكر أنى أعرابى جلف أمى استطعم الكسرة واستشفى بالتمرة ولعمرى يا ابن أم الحجاج[2] إنك لمتيه فى جبلتك[3] مطلخم[4] فى طريقتك، واه فى وثيقتك[5]، لا تعرف الله، ولا تجزع من خطيئتك يئست واستيأست من ربك، فالشيطان قرينك، لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازعه خناقك، فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صفحتك وأوضح لى صلعتك[6] فوالذى نفس قطرى بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال[7] مع أنى أرجو أن يدحض الله حجتك، وأن يمنحنى مهجتك».

وبالنظر إلى هاتين الرسالتين نجد الصنعة فى بسط التعبير ومده، وكذلك اعتمادهما على السجع واختيار الألفاظ والصور من البيئة وما يواءمها

والرسائل قد تكون قصيرة وغير مسجوعة ومثال ذلك ما كتبه يحيى ابن يعمر كاتب يزيد بن المهلب إلى الحجاج «إنا لقينا العدو، فمنحنا الله أكتافهم، فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة برءوس الجبال

---

(١) اظلع من الظلع وهو العرج، السفال سفول الحلق.

(٢) يا ابن أم الحجاج: تقال إذا أرادوا الطعن فى النسب.

(٣) متيه: مضلل، الجبلة: السجية.

(٤) مطلخم: متعجرف.

(٥) وثيقتك: الثقة.

(٦) كناية عن ذاتية وانكشاف أمره.

(٧) تصدير المقال: تسطيره وتحبيره.

وعرائر[1] الأدوية وأهضام[2] الغيطان، وبتنا بعرعرة[3] الجبل، وبات العدو بحضيضه[4].

ولما قرأ الحجاج الرسالة أعجب بها إعجاباً شديداً، وأرسل إلى يحيى يطلبه على البريد، فلما جاءه سأله: من أين لك هذه الفصاحة؟ وهى فصاحة كانت تعتمد على اللفظ الغريب، ونحن لا نثنى على الإغراب فى الألفاظ ولكنا نستدل من هذه الرسالة الموجزة على أن الكُتاب فى عصر الحجاج كانوا لا يزالون يفكرون فى صنعة أساليبهم، فتارة يعمدون فيها إلى السجع، وتارة يعمدون فيها إلى الإغراب اللفظى، فالكاتب لا يفكر فى أداء معانيه فحسب بل يفكر فى تنميتها بضروب من الحلية، كل حسب ذوقه، وكان يحيى بن يعمر لغوياً، وكان ذوقه ذوق لغويين فعمد إلى ألفاظ غير مألوفة كى يروع الحجاج ويملك عليه لبه، ونفذ فعلاً إلى ما أراده، إذا كان الحجاج يميل أحياناً إلى التفاصح بالغريب، على نحو ما مر بنا فى خطبه.

ولم يكن الحجاج يعمد إلى السجع فى كتبه ورسائله دائماً، بل لعل ذلك إنما كان فى القلة وفى الحين بعد الحين، أما الكثرة فتخلوا من السجع، وليس معنى هذا أنه كان يتخلص من محاولة التأنق والتنسيق، فقد كان يسعى إلى تحقيق ذلك دائماً، وكان يتخذ إليه الإغراب فى اللفظ حيناً، وحيناً يتخذ الصور والاستعارات الطريفة، ومن خير ما يصور ذلك عنده مَا

---

(١) عرائر الأدوية: أسلفها.
(٢) أهضام الغيطان: مداخلها.
(٣) عرعرة الجبل: أعلاه.
(٤) البيان والتبين ١/٣٧٧.

رواه الجاحظ فى خاتمة بيانه من أنه كتب إلى عبد الملك بهذا الرسالة[1].

«أما بعد فإنا نخبر أمير المؤمنين أنه لم يصب أرضنا وابل[2] منذ كتبت أخبره عن سقيا الله إيانا، إلا ما بل وجه الأرض من الطش والرش والرذاذ[3] حتى دقعت[4] الأرض واقشعرت[5] واغبرت[6] وثارت فى نواحيها أعاصير تذرو[7] دقاق الأرض من ترابها، وأمسك الفلاحون بأيديهم من شدة الأرض واعتزازها[8] وامتناعها، وأرضنا أرض سريع تغيرها، وشيك تنكرها، سيىء ظن أهلها عن قحوط المطر، حتى أرسل الله بالقبول[9] يوم الجمعة فأثارت زبرجاً[10] متقطعاً متمصراً[11]، ثم أعقبته الشمال[12] يوم السبت، فطحطحت[13] عنه جهامه[14]، وألفت متقطعة، متمصرة حتى انتضد[15]، فاستوى وطماً وطحاً[16]، وكان[17] جوناً[18]

مرثعنا قريباً رواعده ثم عادت عوائده بوابل منهمل منسجل

وواضح أن هذه الرسالة يظهر فيها بوضوح أثار الاستعداد والتأنق وإحكام صنعتها، سواء من حيث اختيار ألفاظها والذهاب بها مذهب الغريب المقبول، أو من يحث دقتها فى تصوير الجدب ثم نزول الغيث وهو تصوير لا شك قد فكر فيه الحجاج طويلاً، قبل أن يحكمه ويضبط التشبيهات

---

(١) البيان والتبين ٤/٩٩.
(٢) وابلك مطر شديد.
(٣) الطش: المطر القليل، ونحوه الرش والرذاذ.
(٤) دقعت الأرض: أصبحت لا نبات فيها.
(٥) اقشعرت: تقبضت من الجدب.
(٦) أغبرت: من الغبار.
(٧) تذرو: تسفى وتحمل.
(٨) اعتزازها: امتناعها، أو لعله من العزاز وهى الأرض الصلبة.
(٩) القبول: الريح الشرقية.
(١٠) الزبرج: السحاب الرقيق الخفيف.
(١١) متمصراً: متقطعاً.
(١٢) الشمال: الريح الشمالية.
(١٣) طحطحت: فرقت وبددت.
(١٤) الجهام: السحاب لا ماء فيه.
(١٥) انتضد: تراكمت طبقاته بعضها فوق بعض.
(١٦) طما: امتلأ وزخر، طحا: انبسط وملأ الجو.
(١٧) كان: هنا بمعنى صار.
(١٨) الجون: الأسود. مرثعناً: مسترسلاً سائلاً. منسجل: منصب.

والاستعارات التى تمثله، وكأنه شاعر يجمع أشتات خياله، ليؤلف هذه اللوحة البديعة.

ولم تكن الرسائل السياسية وحدها هى التى يطرد لها النمو والازدهار، بل شاركتها فى ذلك الرسائل الاجتماعية أو الشخصية لسبب بسيط، وهو أن من كانوا يكتبونها كانوا يعيشون فى تلك الحقب التى أخذ البلغاء يهتمون فيها بتنميق أساليبهم وإيداعها ضروباً من البيان والفصاحة، ونسوق مثلاً لها رسالة عبد الله بن معاوية بن عبد الله جعفر إلى رجل من إخوانه(1).

«أما بعد فقد عاقنى الشك فى أمرك عن عزيمة الرأى فيك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة، ثم أعقبتنى جفاء من غير ذنب، فأطمعنى أولك فى إخائك وأيأسنى آخرك فى رفائك، فلا أنا فى اليوم مجمع لك اطراحاً، ولا أنا فى غد وانتظاره على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى فى أمرك عن عزيمة فيك، فأقمنا على أئتلاف، أو افترقنا على اختلاف والسلام».

والرسالة على قصرها يتضح فيها جهد كاتبها فى تحبيرها، فقد بناها على الطباق والمقابلة بين المعانى والألفاظ، والتوازن بين العبارات والكلمات الفصيحة ذات المخارج الحسنة، وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسناً فأضفى من لسنه وبيانه على رسالته.

ولذا تركنا الرسائل الاجتماعية الشخصية والسياسية الرسمية إلى الرسائل الدينية والجدلية وجدنا أصحابها هم أنفسهم أرباب البيان والبلاغة من الخطباء المفوهين أمثال حسن البصرى وغيلان الدمشقى، وكانت هذه الرسائل تستخدم الأسلوب المزدوج الذى يأخذ بأطراف من التصوير والطباق، ومثال ذلك رسالة لغيلان الدمشقى يقول فيها(2):

---

(1) البيان والتبين 2/84، زهر الآداب 1/78.

(2) عيون الأخبار 2/245.

«إن التراجع فى المواعظ يوشك أن يذهب يومها ويأتى يوم الصاخة[1] كل الخلق يومئذ مصيخ[2]، يستمع ما يقال ويقضى عليه (وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا)، فاصمت اليوم عما يصمتك يومئذ، وتعلم ذلك حتى تعلمه، وابتغه حتى تجده، وبادر قبل أن تفجأك دعوة الموت، فإنها عنيفة إلا بمن رحم الله، ويا رب متعبد لله بلسانه معادٍ له بفعله، ذلول فى الانسياق إلى عذاب السعير فى أمنية أضغاث[3] أحلام يعبرها بالأمانى والظنون، فاعرف نفسك».

وقد اشتهر عمر بن عبد العزيز بأنه كان يكتب إلى الوعاظ أن يرسلوا إليه بعظاتهم ويروى أنه لما ولى الخلافة أرسل إلى الحسن البصرى[4] أن يكتب إليه بصفة «الإمام العادل»[5] فدبج له رسالة طويلة استهلها بقوله:

«اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم[6]، ومفزع[7] كل ملهوف، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق بها، الذى يرتاد لها أطيب المراعى، ويذودها[8]، عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها[9] من أذى الحر والقر،

---

(١) يوم الصاخة: يوم القيامة.
(٢) مصيخ: مرهف أذنه وسمعه.
(٣) أضغاث: أخلاط.
(٤) كان يسار والد الحسن البصري قد سبى فى أيام الفتوح فى ميسان (جنوب العراق) ثم جيء به إلى المدينة فأسلم وأصبح مولى لزيد بن ثابت الأنصارى.
أما أبو سعيد الحسن بن يسار البصرى فقد ولد فى المدينة سنة ٢١هـ، ٦٤٢م ونشأ فى وادى القرى (شمالى الحجاز) ثم انتقل إلى البصرة وولى القضاء فيها ويعد الحسن البصرى من رواة الحديث وفصيحاً واعظاً وخطيباً، قيل فيه أخطب الناس صاحب العمامة السوداء أى الحسن البصرى، كما كان فصيحاً بليغاً بارعاً فى اللغة والفقه تقياً زاهداً واسع العلم حسن الأخلاق، وكان جريئاً فى ابداء رأيه لا يحجم عن تذكير الولاة إن هم انحرفوا عن الحق، وله مع الحجاج ابن يوسف مواقف عنيفة سلم فيها من أذاه بفضل هيبته وقوة عارضته.

(٥) العقد الفريد جـ١ صـ٣٤.
(٦) نصفة المظلوم: انصافه ورد حقه إليه.
(٧) مفزع: ملجأ.
(٨) يذودها: يردها.
(٩) يكنها: يسترها.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين، كالأب الحانى[١] على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم فى حياته ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ووضعته كرهاً، وربته طفلاً تسهر بسهره وتسكن بسكوته، ترضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصى اليتامى وخازن المساكين يربى صغيرهم، ويمون كبيرهم، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح[٢] تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم وينقاد إلى الله ويقودهم، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله فبدد المال وشرد العيال، فافقر أهله وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود[١] ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر[٢].

ويعد أسلوب الحسن البصرى صلة وصل بين الأسلوب المطلق والمسجع من جهة والأسلوب المتوازن من جهة أخرى من حيث صدق اللهجة ووضوح الغرض ونجده يميل إلى التدقيق فى المعانى والتفصيل وهو بعيد عن الجفاء والخشونة يميل إلى الرقة والعذوبة، واختيار الألفاظ والصور المعبرة والاستشهاد بالآيات القرآنية، ونجد صوره مأخوذة من البيئة

---

(١) الحدود: العقوبات.

(٢) الفزع الأكبر: يريد يوم الحساب يوم القيامة.

المحيطة به القريبة للإفهام والمعبرة عن المعانى فى أدق صورة وأبرع تفصيل، ومما يدل على بلاغته فى التعبير والتصوير ما قاله فى صفة المؤمن.

يقول الحسن البصرى وهو يصور المؤمن عند أهل السنة: «إن المؤمنين قوم ذلل، ذلت والله الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى وإنهم لأصحاء القلوب، ولكن دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، والله ما حزنهم حزن الدنيا، ولا تعاظم فى أنفسهم ما طلبوا به الجنة، أبكاهم الخوف من النار، وأن من لا يعتز بعز الله يقطع نفسه على الدنيا حسرات، هذا نهارهم فكيف ليلهم، خير ليل: صفوا أقدامهم وأجروا دموعهم على خدودهم يطلبون إلى الله - جل ثناؤه - فى فكاك رقابهم[1].

ووافق هذا السبب الدينى فى ازدهار الخطابة سبب عقلى مرده إلى عناصر الثقافات الأجنبية التى أخذ يدعم بها العقل العربى منذ هذا العصر مما فتق فيه قوة الجدل والحجاج ومعروف أن الثقافة لهذا العصر لم يضطلع بها العرب وحدهم بل كان يشركهم فيها الموالى الذين اتخذوا العربية لسانهم وقد أخذوا يزودونها بمعارفهم وثقافاتهم القديمة فإذا قلنا إنهم ارتقوا بالعقل العربى وكل ما أنتجه فى ذلك العصر من خطابة وغير خطابة لم نكن مبالغين، فقد كثرت المعرفة وتشعبت المعانى ودقت الفطن ولم يعد لها حد تنتهى إليه وانسابت من ذلك أسراب كثيرة فى خطابتهم، فصاروا أقدر على البيان والتصرف فى الألفاظ.

---

(١) تفسير الطبرى: ١٩ - ٢١.

الفصل الخامس

الإعتذار فى الأدب وخصائصه الفنية

فخطا الاعتذار خطوات تكاد تكون متشابهة فى العصرين الأموى والعباسى حيث أصبح شائعا - رغم صعوبته على النفس - ومرجع ذلك - فيما أرى - أن الخلفاء قد أغدقوا المال على الأدباء ظناً منهم أنهم همزة وصل بينهم وبين رعية كما أنهم وسيلة إعلام ناجحة لتبليغ مايريدون.

وقد جر هذا التكسب على بعض الأدباء سقطات وزلات، اضطر أصحابها لان يعتذروا عنها.

وإغداق المال من ناحية والحرص على التكسب من ناحية أخرى كان سببا فى غرس الأحقاد فى نفوس بعضهم تارة أو محاولة الوشاية عند صاحب النعمة تارة أخرى، الأمر الذى استوجب حذر بعضهم فنراه يمزج اعتذاره بمدحه أو يمزج عتابه بالاعتذار.

وقد حفل العصر الأموى بالصراعات الحزبية؛ وزاد العصر العباسى عليه صراع الخلفاء فيما بينهم على العرش، وقد حرص كل منهم على وسيلة إعلام جيدة تؤيده وداعية تدعو له - ممثلة فى الأديب الذى أغدق عليه المال والمغريات بما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وربما ألجأت الحاجة أديباً لأن ينضم إلى حزب أو أن يدعو إلى خليفة لايقتنع به، وكثيراً مايمدح الأديب عظيما، ويهجوا من أجله الخصوم ثم يفارق العظيم منصبه أو تفارقه العظمة، وهنا يجد نفسه مضطرا لأن يعتذر لمن هجاه من الخصوم السياسيين أو الحكام اللاحقين، وهكذا كانت صورة عصرى بنى أمية والعباسيين.

وأسمر الغزل الكيدي لما كان له من عظيم الصدى عند الخصوم ، فقد شبب محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي بزينب بنت يوسف أخت الحجاج فقال :

تضوع مسكا بطن نعمان أن مشت ٭ به زينب في نسوة خفرات

يخبئن أطراف البنان من التقى ٭ ويخرجن شطر الليل معتجرات

مررن بفخ ثم رحن إلى منى ٭ يلبين للرحمن مؤتجرات

ولما رأت ركب النميري أعرضت ٭ وكن من أن يلقينه حذرات

فطلبه الحجاج ، فهرب منه ثم أتى به ، فلما وقف بين يديه قال :

هاك يدي ضاقت بي الأرض كلها ٭ وإن كنت قد طوفت كل مكان

فلو كنت بالعنقاء أو بسماية ٭ لخلتك إلا أن تصد تراني

وقال : أيها الأمير ن قلت إلا خيراً ، إنما قلت :

يخبئن أطراف البنان من التقى ٭ ويخرجن شطر الليل معتجرات

فعفا عنه ، ثم قال : أخبرني عن قولك :

فلما رأت ركب النميري أعرضت ٭ وكن من أن يلقينه حذرات

كم كنتم حينئذ ؟ قال : كنت على حمار وصاحب لي على أتان هزيل فضحك الحجاج . (١)

ونلاحظ أن هـذا التشبيب كان عفيفاً غاية العفه وأن الجاني قد راعى مكانة الحجاج وهيبته وصولته فهرب لما طلب ، ولما أتى به أحسن الدخول حيث مزج العذر بالتضرع والتذلل وأشعر الحجاج أنه مدرك لا محـالة ،

(١) العفو والاعتذار جـ ٢ / ٥٢٧ .

ومن أسباب قبول الاعتذار أريحية المعتذر إليه :

ومن الناس من تأخذهم الأريحية العربية ، فيقبل العذر على إطلاقه مادام قد أتى المذنب مقراً بالذنب طالباً العفو ، وهم يرون أن من اعتذر إليه فلم يقبل العذر فقد تحمل وزراً عظيما ، بل وأساء إلى المعتذر . !

يقول أحد الشعراء معبراً عن هذا المبدأ أو هذا الاتجاه : (١)

إذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه * وكل امرىء لا يقبل العذر مذنب

وقال شاعر حكيم :

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً * إليك فلم تغفر له فلك الذنب

وقال الحسن بن وهب يعتذر :

ما أحسن العفو من القادر * لاسيما عن غير ذى ناصر

إن كان لى ذنب ولا ذنب لى * فما له غيرك من غافر

أعوذ بالود الذى بيننا * أن يفسد الأول بالآخر

وقال آخر :

إقبل معاذير من يأتيك معتذرا * إن بر عندك فيما قال أو فجرا

فقد أطاعك من أرضاك ظاهره * وقد أجلك من يعصيك مستترا

خير الخليطين من أغضى لصاحبه * ولو أراد انتصاراً منه لانتصرا

إلى هذا الحد يرى أصحاب هذا الاتجاه ذنب من لم يقبل عذر من تنصل إليه . !

(١) العقد الفريد جـ ٢ / ١٤٣ ، ١٥٧

وقال آخـــر :

البر بى منك وطى العذر عندك لى * فيما أتاك فلم تقبل ولم تلم (١)

وقام علمك بى فاحتج عنـدك لى * مقام شاهد عدل غير متهم (٢)

وإيثار العفو على العقوبة والستر على الجانى مذهب دعت إليه الإنسانية وحث عليه الإسلام ، وفى الأبيات التى ذكرت دعوة إلى قبول الاعتذار ومحافظة على كرامة المعتذر ، دون سكب ماء وجهه ، وهى صفة جليلة يتصف بها المعتذر إليـه ولاشك أنها ترفعه إلى درجة الإحسان .

يقول الحسن بن رجاء يصف المأمون بهذه الصفة أو بهذا المعنى (٣)

صفوح عن الاجرام حتى كأنه * من العفو لم يعرف من الناس مجرما

وليس يبالى أن يكون به الأذى * إذاما الأذى لم يغش بالكره مسلما

وقال ابن عبد ربه الأندلسى :

عذيرى من طول البكا لوعة الأسى * وليس لمن لا يقبل العذر من عذر

وقال آخـــر :

فهبنى مسيئاً كالذى قلت ظالما * فعفوا جميلا كى يكون لك الفضل

فإن لم أكن للعفو عنـدك للذى * أتيت به أهلا فأنت له أهل

---

(١) وطى : وطأ . (٢) المرجع السابق .

(٣) هـو الحسن بن رجاء بن أبى الضحـاك أبو على الـكاتب ولى أبوه إمرة دمشق للمعتصم ونشأ الحسن فى خلافة المأمون وصار من كبار الكتاب (راجع العفو والاعتذار ج ١ / ٨٨)

الاعتذار بالاقتباس من القرآن الكريم :

وقد يستخدم المعتذر شيئاً من القرآن الكريم وهو يعتذر أو تسعفه الذاكرة بشيء منه للاحتجاج به وهذا مانقصده بالاقتباس ، وهو كما يعطى انطباعاً طيباً عن المعتذر يعطيه قوة التأثير على عاطفة المخاطب ، حين يحرك فيه تلك النزعة الدينية التي تحثه على العفو .

- ١ -

ومن طرائف الاعتذار بالاقتباس من القرآن ماحكى عن جعفر الصادق - رضى الله عنه - أن غلاماً له وقف يصب الماء على يديه فوقع الأبريق من يد الغلام فى الطشت فطار الرشاش فى وجهه ، فنظر جعفر إليه نظر مغضب فقال الغلام : يامولاى « والكاظمين الغيظ » قال جعفر : كظمت غيظى ، قال « والعافين عن الناس » قال : عفوت عنك ، قال الغلام « والله يحب المحسنين » فقال جعفر : اذهب فأنت حر لوجه الله الكريم (١) .

- ٢ -

وأتى مروان برجل أخذ عن ابن أخ له فقال له الرجل : كيف أوخذ عن ابن أخى ولا علم لى بما صنع ؟ فقال له مروان : أورويت الشعر قال : لا قال أو ماسمعت قول الشاعر :

جانيك من يجنى عليك وقــد ✿ تعدى الصحاح مبارك الجرب

فقال الرجل : لكن الله عز وجل يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »

---

(١) راجع الدين والأدب / عباس كرارة ط الثانية ص ١٧٨ ، والآية بسورة آل عمران / ١٣٤ .

فقال مروان : صدق الله وكذب مروان - خلوا عنه (١) .

وقيل لابن عمران : المختار بن أبي عبيد يزعم أنه يوحى إليه قال : صدق الله عز وجل « وان الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » (٢) .

فابن عمران يعتذر له أي أنه أنى له بالعذر - عن تورطه - ألا وهو اتباعه لحزب الشيطان .

- ٣ -

بين الحجاج وبعض خصومه :

أتى الحجاج بأسرى فأمر بقتلهم فقال له رجل منهم لاجزاك الله ياحجاج عن السنة خيراً فإن الله تعالى يقول : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء » .

وقال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق :

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم * إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

فقال الحجاج : ويحكم ! أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني هذا المنافق وأمسك عمن بقى (٣) .

* * * *

---

(١) المستجاد من فعلات الأجواد ص ٢٦١ وسورة النجم / ٣٨ .

(٢) المستجاد من فعلات الأجواد / ٢٥٧ والآية في سورة الأنعام / ١٢١ .

(٣) العقد الفريد ٢ / ١٧٤ وسورة محمد / ٤ .

الخصائص الفنية لأدب الاعتذار

الاعتذار : على وزن الاختيار ، وكلاهما من عقل صاحبه وعلامة على ذكائه وفطنته حين يوفقا ، فكما قالوا : « وكان دليلا على اللبيب اختياره ، يمكن أن يقال لمن قبل اعتذاره وكان دليلا على اللبيب أعتذاره ! »

والاعتذار : ضرب من ضروب التعبير ، وفن من فنون الأدب ، يمكن أن ينفرد بخصائص تميزه .

أولا : من الناحية النفسية :

- ١ -

- يتميز هذا الفن - من بين الفنون الأدبية - بقلته ، سواء أكان شعراً أم نثرا ، ومرجع ذلك - فيما أعتقد - هو صعوبته على النفس البشرية ، فالنفس الأبية تأبى أن تعتذر ، وإذا ما أوقع القدر صاحبها وألجأته الحاجة إلى الاعتذار شق ذلك على نفسه وأصبح صدره ضيقاً حرجا « كأنما يصعد فى السماء » . وهذا مايشير إلى أن هذا الفن وثيق الصلة بالنفس ، وكيف لا وهو ينبنى على مطارد نفسية !

وهذا الرباط ليس بدعاً فى الأدب ولا جديداً على رجال البحث الأدبى ؛ بل فطن القدماء إلى تلك الناحية النفسية بيد أنهم - بالطبع - لم يستخدموا ماعرف بعد من مصطلحات ... فقد طرق ابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ) تلك الناحية النفسية فذكر أن للشعر « دواعى تحث البطىء وتبعث المتكلف : منها الطمع ومنها الشوق ومنها الشراب ومنها الطرب ومنها الغضب » (١)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ / ٨٤

أما الاعتذار على ألسنة الرسل فهو دائماً يحمل معنى التوجيه وأخذ العبرة، بأنه التوجيه للدعاة حيث الصبر على مشقات :

الدعوة وسعة الصدر أمام المجادلين المكابرين.

إن اعتذار الرسل هو من قبيل اعتذار البرىء أو من قبيل المعنى المشهور " حسنات الأبرار سيئات المقربين ".

ثانياً - الخصائص الأسلوبية :

من العسير أن تجد أديبين يلتقيان على أسلوب واحد فى الشعور بالمعنى والإفصاح عنه فلكل شاعر أسلوبه ونهجه الذى يلائم مزاجه وثقافته وهو نهج مستمد من العاطفة الفنية، والعقل المتحرك على ضوء العاطفة فى وعى ويقظة، وإنما يقع الشبه بين الأديبين من حيث الطريقة والمذهب الفنى تجاه المعانى وصياغتها.

من أجل هذا عنيت بالخصائص الأسلوبية تلك السمات العامة التى يتسم بها فن الاعتذار فى جملته والتى يتميز بها عن غيره من الفنون

- ١ -

وضوح الأسلوب وبساطته :

حرص أدباء الاعتذار على السهولة والوضوح فى ألفاظهم وأساليبهم فهو أدب يجمع بين البساطة فى الأداء والروية فى الصنعة : بمعنى أن المعتذر يعبر عن قصته تعبيراً مباشراً لا يحتاج فيه إلى إطالة فكر أو إلى تعمق فى الخيال أو إلى إضافة جزئيات كثيرة تشعرك أن المعتذر قد أعمل فنه كثيراً . خيال المعتذر . غالباً . بعيد عن التعمق بعيد عن التحليل والتعليل يدور فى مساحة

حـــول الاعتراف والتماس عفو عاطفه ، فكعب بن زهير يعتـــذر لرسول الله فيقول :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم * أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

لقد أقوم مقاماً لو يقوم به * أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لظل يرعد إلا أن يكون له * من الرسول بإذن الله تنويل

فلقد بلغت البساطة التي تلفت النظر حين يقارن بينه وبين الفيل في التحمل للمخافة والخوف من الرسول ما لو أتاه الفيل على ضخامته لظل يرتعد من الخوف إلا أن تناله منة إشفاق من الرسول ﷺ وهكذا يكون أسلوب الاعتذار سلساً وتعبيراً عذباً ، واستفاضة في الوصف والتصوير وهكذا تطوع أساليب اللغة في بلاغة ونصوع .

- ٢ -

تكلف الرقة اللفظية .

وفي الاعتذار تكلف الرقة ، ومحاولة التحضر والبعد عن الجفوة والبداوة فالمعتذر لا يهتم كثيراً بإبراز البراعة اللغوية - إلا ما جاء عفو الخاطـــر أو جادت به القريحة ارتجالاً - وإنما جل همـــه ومبلغ قصده هو إيصال معناه وبلوغ مرماه المتمثل في قبول عذره ، من أوضح طريق وأخصره بعيداً عن كل حوشي غريب .

- وربما لجأ إلى براعة الحوار : فالأحداث القصصية ، واستغلال النزعة الدينية ومحاولة الاقتباس ، كل هذا إنما هي أنماط من الحوار تحفل بكلمات

اختيار الألفاظ :

وهذه الرقة المعتمدة يتبعها تعمد اختيار الألفاظ الموحية ناعمة الجرس رائعة التشبيه ، واضحة الخيال بارعة التصوير فني رقة الجرس استهواء لسمع المخاطب وروحه .. وفي التشبيه مجال فسيح للتلفيق والتنفيق حيث يشد السامع عادة إلى مابين المشبه والمشبه به من فروق ، كما يلهيه وجه الشبه الواضح عما هناك من أبعاد وهنا يجد المعتذر فرصة سانحة للإقناع فمن المعلوم أن الأسماع إذا استراحت إلى حلاوة النغم وجمال اللحن فإن القلوب لتستروح من معانيه بشاشة وإيناسا ، ولما كانت الصورة الأدبية غالباً وليدة الحس والانفعال ، فإن انفعال المعتذر وصورته تكاد تنحصر في « الرهبة من المخاطب أو الرغبة في نواله » ، وهذا ما يؤكد اعتماد صورته الأدبية على إيحاء اللفظ ومكنونه وإحساس الشاعر وتوفيقه في اختيار ألفاظه الموحية المعبرة .

ففي قول النابغة مثلا :

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

« فأنت ترى أن صورة كهذه لم تعتمد في أدائها على كثير من التأمل والصنعة وإن كانت جميلة رائعة قوية التأثير ، استطاعت لفظتان من البيت أن تحركا في نفوسنا الأثر الجميل (القرار والزئير) فقد عرفنا من الكلمتين موقف كل من الرجلين أحدهما في قوة الأسد وبطشه والآخر مفزع لا يقر له قرار » (١)

---

(١) النابغة الذبياني د . محمد ذكي العشماوي / ١٩٩

ولا يختلف اثنان من متذوقي الأدب على مر العصور في روعة البيان حين يسمعان النابغة وهو يعتذر فيصور قدرة النعمان على الظفر به لا محالة فيقول :

فإنك كالليل الذي هو مدركي ٭ وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

« فالليل » من شأنه أن يبث الرعب وأن يملأ القلب بالفزع ولفظة « المنتأى » وما تؤديه من معنى الفسحة التي يتصور بها دون جدوى من إدراكه والظفر به وفي قول كعب لرسول الله ﷺ :

مازلت أقتطع البيداء مدرعا ٭ جنح الظلام وثوب الليل مسدول

نلمس عناية الشاعر باختيار ألفاظه الموحية فقوله (مازلت) يوحي بالاستمرار. فما عاناه في طريقه مازال باقيا وما زال الخيال المخيف ماثلا ، وقوله (أقتطع) بزيادة تاء الافتعال على الفعل أقطع أضفت عليه إشعاعا وإيحاء والتخيين بالإضافة إلى مايفيده المضارع من معنى التجدد والحدوث في الفعل وتاء الافتعال بما تفيده من الجهد والمغالبة واختياره لمادة الفعل نفسه (القطع) بدلا من السير أو المشي أو الاجتياز كل ذلك يجعلنا نتخيل كأن الشاعر يقتطع الفلاة اقتطاعا وينتزع منها الجزء اليسير تلو الجزء اليسير انتزاعا ، وقوله (مدرعا) ومعناه أنه كان يتخذ من الظلام درعا تحميه وفيه أيضا تاء الافتعال التي حذفت لأسباب تصريفية لغوية (١) وقد تجاوز الشاعر الاحتماء بالظلام أو اتخاذه ثوبا وأبى إلا أن يأتي بأقوى مايحتمي به في أحلك ظروف الخوف وهي للدرع فليتخذ من الظلام الكثيف درعا كثيفة سابغة ولم يلبسها بجرد

(١) وأصله مدترعا على وزن مفتعلا .

لبس عادي وإنما تشبث بهما واحتمى بهما وطواها على نفسه ، وترك جنح الظلام) بدلا من (جنح الطريق أو الصحراء) ليظل الظلام مادة ومادة جنح تدون نحول الليل ليوحي بأنه حين احتمى بالظلام واتخذه درعاً كان يتحاشى وضح الطريق متلمسا الجوانب المنعزلة والطرق المنزوية لايظهر عليه أحد ، و (ثوب مسدول) فالليل ينسدل على الناس جميعا ويحقق لكل منهم كل مايريد من استتار أو اختفاء أو حماية أما هو فمع وجود الليل وإسدال الثوب على الكون وعلى الناس جميعاً فإنه يبحث عن ظلام كثيف كثافة الدرع مع وجود الظلام العام الذي يسدله الليل على الكون (١) .

كل هذه المعاني يتخيرها الشاعر لاعتذاره مبيناً ماعاناه من خوف وما احتمله من تضحية ومخاطر في سبيل الوصول والرضا والقبول بين يدي الرسول ﷺ

* * * *

ولعل من اختيار اللفظة وتعمد الرقة : تعمد قلب اللفظة المهجو بها إلى ضد معناها تلطفاً وحيلة إلى قبول الاعتذار ، ومن ذلك قول عبدالرحمن ابن حسان يهجو معاوية بن سفيان بن حرب لاستلحاقه زياداً بنسبه يقول :

ألا أبلغ معاوية بن حرب * فقد ضاقت بما يأتي اليدان
فأقسم أن رحمك من زياد * كرحم الفيل من ولد الأتان
وأقسم أنها ولدت زياداً * وصخر من سمية غير دان

فلما جيء به ليعتذر لزياد ، وسأله عن قوله المذكور قال ماقلت هذا

---

(١) راجع نصوص أدبية من العصر الإسلامي د. عبدالحليم حفني / ١٥٨ , ١٦٦

الصـــدق الفني :

وانتقاء الألفاظ واختيارها إنما يدفع إليـــه صدق العاطفة ، فالعاطفة الصادقة ركن من أركان الأدب وعنصر من أهم عناصره - ولا شك - فيما أرى أن كل موقف من مواقف الاعتذار يعد تجربة مستقلة ، فنقاد الأدب يعرفون التجـــربة بأنها « الصورة الكاملة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه وفيها يرجع الشاعر إلى اقتناع ذاتي وإخلاص فني لا إلى مجرد مهـــارته في صياغة القول ليعبث بالحقائق أو يجاري شعور الآخرين لينال رضاهم » (١) فأدب الاعتذار يتميز في معظمه بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ، فالنابغة مثلا كان صادق العاطفة وهو يعتذر للنعمان ولا أدل على ذلك من الحاجة التي كانت تدفعه إليه دوافع إنسانية أخلاقية تنبئنا بها روح النابغة .. في علاقاته ببعض الخارجين عليه وعلى سياسته من المتطرفين البدو ، وفي علاقاته بغسان وفي علاقاته بالقبائل المحالفة وفي رده على الخصوم والوشاة الذين يريدون أن يحولوا بينه وبين حلف بني أسد وهذه الروح استطعنا أن نتحققها من الاعتذار نفسه ، « فالنابغة يعتذر إلى النعمان وهو يعـــلم أن النعمان مريض قد ألحت عليه العلة وأن شفاءه أصبح ميئوساً أو مايشبه الميئوس وهو يحاول التقرب منه في عاطفة لا نشك في صدقها » . (٢)

---

(١) النقد الأدبي د . غنيمي هلال : ٣٨٤ دار النهضة المصرية ١٩٦٩ م ط ٤

(٢) النابغة الذبياني د . ذكي العشماوي / ٨٩

ونلمس الصدق فى اعتذار كعب بن زهير لرسول الله ﷺ وهو يمهد بمدخل بارع يقول فيه :

تسعى الغواة جنابيها (١) وقولهم * إنك يا ابن أبى سلمى لمقتول

فهو يعلن فى صدق ودون حرج - أن أقرب الناس إليه قد تنكر له ولم يجد مفراً من مواجهة الموقف العصيب وحده وقام اعتذاره على معنى دقيق، حيث إنه لم يطلب العفو طلب المتهافت على الحياة الجازع من الموت بل قام على إيمانه بقضاء الله واستعداده لمواجهة النتيجة المحتومة إن لم يعف عنه النبى ﷺ ، ومن التزام الشاعر الصدق أنه لا يركز حديثه على تكذيب ما قيل عنه حيث يعترف بكثرة ما نقل عنه ضد الرسول والمسلمين ولكنه يمر خاطفاً على تبرئة نفسه دون تركيز على ذلك فى كلمة واحدة هى : « لم أذنب » ولعله يعنى أنى حينما قلت هذا الكلام كنت معتقداً صدقه ، ولم أكن عرفت حقيقة الإسلام بعد . !

- ومن صدق الشاعر أنه لم يخجل أن يصرح بما عاناه من الخوف والرعب الشديد من وعيد النبى ﷺ إياه ، ولكنه أحسن التخلص من حرج وصف نفسه مباشرة بهذا ، فألقاه على أحد الأفيال ، مقارناً بينه وبين الفيل فى تحمل ما عاناه من هذا الخوف والرعب » (٢)

- فعذره إذن أنه لم يكن يعرف حقيقة الإسلام بعد ، فهو ممن شرح الله

---

(١) جنابيها : حولها وهو يعنى ناقته .

(٢) نصوص أدبية من العصر الاسلامى د . عبد الحليم حفنى / ١٤٩ .

دليل الكتاب